

الفصل الثالث

الاجتياح السلجوقي للجزيرة والشام

ابن خان ، النواكية ، حملة الب ارسلان على
الشام والجزيرة . اتسز . تتش بن الب
ارسلان ، مسلم بن قريش وسقوط الدولة
المرداسية . حملة ملك شاه على الشام
والجزيرة

وكان من عجائب الزمان أن أنطاكية خربتها زلزلة عظيمة قبل
فتحها (من قبل الفرنجة) بمدة أربع سنين ، وسقط من سورها عدة
أبرجة .

حكى القاضي حسن بن الموج الفوعي قال : كنت قد هربت من
المجن (بركات بن فارس الفوعي رئيس أحداث حلب في زمن رضوان
ابن تتش) ووصلت إلى أنطاكية وخدمت بها الأجل مسعود وزير
يغي سغان (أمير أنطاكية) فتركتني على العمارة ، قال : فعدنا إلى
ما قد أخربته الزلزلة من السور فعمرناه ، فعاد أحد الأبرجة هبطا
وعاب ، فأشير علينا بنقضه ، وأن يقرر أساسه ، فهدمناه ، ونزلنا
على آخر دمس في أساسه ، فوجدنا جونا قد انكسر عليه طابق عظيم
فكشفتناه ، فوجدنا فيه سبعة أشخاص من نحاس على خيل من نحاس
على كل واحد ثوب من الزرد معتقلا ترسا ورمحا، قال : فعرفت
الأجل مسعود بذلك ، فنفذ ثقته فأخرج الأشخاص وكشف ما تحت

الجرن فلم يجد شيئا سواها ، فحمل الأشخاص إلى الوزير ، فأخذها وأحضرها إلى مجلس الأمير يفي سفان ، فقال بعض الحاضرين : لو أحضر الأمير من مشايخ المدينة من يكشف له حقيقة هذا الأمر ، فتقدم بأحضر جماعة وأبرزت إليهم الأشخاص ، وقيل لهم : تعرفون ما هذه الأشخاص ؟ قالوا : ما نعرف بل إننا نحكي للأمير ما يقارب هذا الأمر ، لنا دير يعرف بدير الملك واسع الهواء غاب علينا في سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، فتكسر أكثر خشبه ، فنقضناه وتطلبنا له خشبا بمقداره فلم نجد بأنطاكية وبلدها شيئا ، فأشار علينا بعض الصناع بتقديم الحائط فحفرنا أساس الحائط الجديد ، فلما انتهينا إلى أسفله وجدنا أشخاص أتراك من نحاس في أوساطهم القسي والذشاب فلم نحفل بذلك ، وعمرنا الحائط ، فما مضى لنا غير مدة قصيرة حتى سرق المدينة سليمان بن قتلش في أول شعبان سنة سبع وسبعين وأربعمائة في أربعمائة غلام أو بون ، وملكنا كما سمع الأمير ، وهذه الأشخاص ربما كانت من أمة هذه أشكالهم من العرب أو غيرهم من المسلمين ، ووروا عن خبر الفرنج وكان قد وصلهم عنهم أخبار شاذة وما يجسر أحد يفوه بها ، فشتهم يفي سفان أقبح شتم وقال : يا كفار في الأرض غير الأتراك وأمر بإخراجهم ، فما حال الحول حتى قيل الفرنج قد نزلوا القسطنطينية (١) .

عندما تعرضت الموصل لأول غارة غزية في تاريخها ، وصلت أصداء هذه الغارة إلى حلب التي كانت تحكم آنذاك من قبل شمال ولقد سجلت هذه الأصداء في شعر ابن أبي حصينة شاعر شمال بقوله
أموا وهموا بالورود فراعهم

من دونه هذا الهمام الأروع

من مبلغ الأتراك ان امامهم

بحرا يفرق موجه من يشرع

يتيقنوا ان الشام واهله

أحمى بلاد الخافقين وأمنع (٢)

كان الغزاة الجدد بالنسبة لابن أبي حصينة أتراكا فكروا بغزو الشام ، لكنهم تراجعوا عن القيام بذلك بسبب قوة ثمال وامتانة حكمه وطبعا الشعراء كما هو معروف «يتبعهم الغاوون» ، فقد سقط ثمال وزال حكمه كما رأينا نتيجة لدخول الغز بغداد وتسلمهم زمام الأمور بها .

بعيد مقتل البساسيري قام عطية بن صالح بالاستيلاء على بلدة الرحبة وحاز على جميع ما تركه البساسيري فيها ، وتمكن في تلك الأثناء محمود بن نصر بن صالح من الاستيلاء على حلب

وطرد النائب الفاطمي منها ، ولما عجزت الدولة الفاطمية عن استعادة حلب طلب الخليفة المستنصر من ثمال بن صالح مغادرة القاهرة وعينه مرة جديدة أميرا على حلب ، وعينه مرة جديدة أميرا على حلب ، ولقد استطاع ثمال بعد عناء دخول حلب يوم الاثنين ٢٩ ربيع الأول عام ٤٥٣ هـ ٢٣ نيسان ١٠٦١ م ، فأستأنف أمارته فيها وجدد حكم الأسرة المرداسية في شمالي بلاد الشام . لكن حكمه هذه المرة كان قصيرا ، ففي ١٣ ذي القعدة من العام التالي ٤٥٤ هـ ١٨ تشرين ثاني ١٠٦٢ م توفي ثمال ، وخلفه - بناء على وصيته - أخوه عطية بن صالح في إمارة حلب (٣) . لكن ذلك لم يرض محمود بن نصر فقام ينازع عمه على الأمانة .

تبعاً لابن العديم لم يدخل أحد من الغز بلاد الشام حتى بعد وفاة ثمال بن صالح ، وذلك أثناء الصراع الذي تبع وفاته من أجل حكم حلب بين أخيه عطية بن صالح وابن أخيه محمود بن نصر الذي ثار ضد عمه مدعياً بأنه أحق من عمه في حكم حلب ، وقام محمود بجمع قبيلة كلاب حوله وتوجه على رأسه نحو حلب ، وفي رجب سنة ٤٥٥ هـ /تموز ١٠٦٣ م حاصر محمود وقواته الكلابية مدينة حلب في محاولة لاستحواضها وانهاه حكم عطية واحلال نفسه محله .

ويبدو أن عطية بن صالح كان أقل مكانة من سواء من أخوانه في قبيلة كلاب ، لذلك أيد الكلابيون ابن أخيه ضده ، ولكن عندما حاصر الكلابيون حلبا هذه المرة ، كان الزمان الذي احتجزت فيه قبيلة كلاب القوة المؤثرة والكلمة الفصل في المنازعات من أجل سيادة شمال بلاد الشام قد ولى إلى غير عودة ، فقد كانت المنطقة وما جاورها تموج بقوى الغز الجديدة ، وستكون الكلمة الفصل منذ الآن لهذه القوى ، وكان الآن بإمكان عطية وسواء الاستغاثة باحدى مجموعات الغز ودعوتها لمساندته ، وهذا ما حصل .

عند اشتداد الحصار على عطية وجهه الدعوة الى أحد زعماء التركمان الذي عرف باسم ابن خان ودعاه للقدوم إلى حلب ، وكان ابن خان مقيما في الجزيرة ، وما أن وصلتته دعوة عطية حتى تحرك مع أتباعه نحو حلب ، لكن ما أن وصلت اخبار تحركه هذه الى محمود بن نصر وأتباعه الكلابيين حتى سارع معهم للعمل على فك الحصار عن حلب ، وتحرك عطية بسرعة فطلب من ابن خان عدم متابعة سيره نحو حلب ، كما قام بصنع نوع من المصالحة مع ابن أخيه محمود بن نصر ، وهكذا لم يدخل أحد من التركمان حلب هذه السنة .

ولقد كانت هذه التسوية التي تمت بين عطية ومحمود تسوية مؤقتة تمت تحت ضغط ظروف استثنائية ، ففي الأسبوع الأول من شهر ايار للعام التالي (١٠٦٤ م) تحرك محمود من جديد ضد عمه واستولى على حماة ومعرة النعمان مع حصن كفر طاب ، ثم قاد قبيلة كلاب نحو حلب ، ولقد أخفق عطية في صد محمود وقواته ، ووقعت حلب تحت الحصار ، وكان الحصار حصارا قاسيا أجبر عطية على تجديد استغاثته بابن خان وأتباعه من الغز ، واستجاب ابن خان لطلب عطية وجاء نحو حلب ، ودخلها ، ولقد سبب قدومه ودخوله إلى حلب انسحاب محمود مع قواته الكلابية ، وهكذا تحرر حكم عطية من الخطر الكلابي ولكنه وقع في الوقت ذاته تحت خطر جديد أشد مما تقدمه سيكون حتفه على يديه .

وما أن دخل ابن خان حلب حتى بدأ على الفور يباشر سلطانه عليها وعلى جميع شؤون الامارة ، ولم يسترح اهالي حلب للسلادة البداية الجدد ، وكره احداث حلب الغز الذين بدأوا ينازعونهم سلطانهم التقليدي ويعملون لازالتهم من الوجود ، وعطية نفسه وجد انه أخذ يفقد سلطته كأمر ، لذلك سارع لاقامة صلح جديد مع ابن اخيه محمود ، تقاسم على اساسه معه اراضي الامارة ، وبدأ عطية بعد هذا يعمل للتخلص من ابن اخيه وأتباعه وتوجه نحو الأراضي البيزنطية فأعمل الغارة فيها ، ثم توجه عائدا نحو حلب ، وكان يخيل له بأن ابن خان لن يعود معه ، لكنه عاد ووجد عطية نفسه امامه بلا حول ولا طول فقبله مرة اخرى في حلب .

وبدا عطية يفكر في طريقة جديدة مجددة للخلاص من ابن خان وأتباعه ، وفي احدى ليالي كانون الثاني لعام ١٠٦٥ م وجد عطية الفرصة للخلاص من الغز ، فقد كان ابن خان آنذاك خارج حلب ، وهنا أمر عطية الاحداث ان يغيروا فجأة على محلات الغز ، ونفذ الاحداث الاوامر ، فنهبوا خركاوات الغز وقتلوا عددا من رجالهم وأسروا بعضا من النساء ، واستولوا على خيول وأسلحة الغز ، وأجبروا من بقي حيا منهم على الفرار إلى خارج أسوار حلب ، وعندما سمع ابن خان بما حدث ورأى ما حل بأتباعه جمع فلولهم ، وأراد التوجه بهم شرقا نحو اعالي الجزيرة ، لكن القبائل البدوية التي كانت قاطنة حول حلب تخطفتهم وحالت بينهم وبين الوصول إلى غايتهم ، وهنا اتخذ ابن خان قرارا خطيرا بأن قام بالسفر إلى سمرين حيث كان يعسكر محمود بن نصر فالتجأ اليه ووضع نفسه ومن بقي معه من أصحابه تحت تصرفه .

ولقد شجع هذا محمود بن نصر كثيرا ، فقام بجمع قواته الكلابية وتوجه على رأسهم نحو حلب فحاصرها لمدة ثلاثة أشهر ، ولقد كان الحصار قاسيا ، وكان ابن خان والغز من أكثر الناس تأثيرا به ، ولما شعر عطية بأنه لن يستطيع متابعة المقاومة ، تنازل عن حلب وسلمها لابن اخيه الذي دخلها في التاسع من اب ١٠٦٥ م .

بعدما دخل محمود حلبا لم يدخل ابن خان واتباعه إلى المدينة لأنهم كانوا يخشون الاصطدام بالأحداث ، ولقد سافر ابن خان نحو الجزيرة والعراق وعاد إلى أمارة حلب في العام التالي ١٠٦٦ م ومعه فوجا جديدا من الأتباع كان مؤلفا من أصول مختلفة فيه بالإضافة إلى التركمان كرد وديلم وأوج (الأوج اسم أطلق على سكان الحدود الإسلامية البيزنطية) ، ولقد أقطع محمود ابن خان بلدة معرة النعمان ، فدخلها مع اتباعه واستقر بها (٥) .

بعد هذا الحديث لابد للمرء أن يتساءل من هو ابن خان هذا ؟ وسأحاول الإجابة على هذا السؤال ، ثم أتابع بعدها الحديث عن الأعمال التي قام بها هذا التركماني في بلاد الشام ، لكن قبل البدء في الإجابة ينبغي التنبيه إلى الأمر التالي وهو أنه عند قيام أي هجرة بدوية يكون في العادة من أصعب الأمور على الباحث التعرف بشكل يقيني على زعماء الهجرة فردا فردا وبالتالي تبيان أعمال كل واحد منهم ، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول منذ البدء بأنه قد يكون قد وجد بين التركمان أكثر من ابن خان أي ان ابن خان الذي دعاه عطية أول مرة قد يكون غير ابن خان الذي دخل حلب لأول مرة ، ثم إن الأعمال التي سندسبها إليه قد تكون صنعت من قبل غيره إن أوفى معلومات وصلتنا عن ابن خان هي التي أوردها ابن العديم (هذا وإن لفظة ابن خان توحى بمكانة صاحبها ، كما لو نقول ابن الأمير أو ابن الملك) . ويروي ابن العديم بأن ابن خان كان ابنا لملك الترك ، وأنه غاضب أباه وهجره نحو الأراضي الروانية في أعالي الجزيرة ، وفي الوقت الذي لا يبين فيه ابن العديم من كان ملك الترك هذا ، يبدو كأنه ينقل بلا شعور كلمة ابن خان إلى العربية ، وعلى كل حال نحن نستخلص من ابن العديم بأن هارون كان هو الاسم الأول لابن خان ، واتباعه كانوا عبارة عن الف من الرماة من أصول مختلفة كان التركمان العنصر الغالب بينها .

لقد ذكرنا بأنه نتيجة لمؤامرة عطية اضطرب ابن خان مع الناجين من اتباعه للالتحاق بمحمود ، ثم ذكرنا بعد ذلك توجه محمود نحو حلب وحصاره لها ، وأشرنا بأن الغز اتباع ابن خان كانوا الأداة

الفعالة و المؤثرة التي أدت إلى سقوط حلب بيد محمود وبالتالي إلى إنهاء حكم عطية ، ومعلوم أن أعمال الحصار وفتح المدن كانت في العادة تحتاج إلى عدد كبير من الجند ، ولما كان أتباع ابن خان الذين نجوا من حلب كانوا لا يتجاوزون حفنة من الرجال فإن هنا غموضا يحتاج للجلاء .

يحدثنا كلا من العظيمي وابن القلانسي بأنه بعد أن التحق ابن خان بمحمود قام كلاهما بالسفر الى طرابلس ، وبعد أن مكثا هناك بعض الوقت عادا وتوجها مع قواتهما نحو حلب فحاصراها حصارا كان ابن خان وأتباعه من الغز السبب الكبير الذي أدى الى سقوط المدينة الى محمود بن نصر ، ان هذا الخبر يفيد بأن محمودا وابن خان ربما قاما - عندما كانا في طرابلس - بتجنيد جيش غزي ، وإذا صح هذا ففيه اشارة ودليل الى وجود تركمان آنذاك في منطقة طرابلس ، وهذا بدوره يعني أن بعض الغز كانوا قد دخلوا جنوب غربي بلاد الشام قبل دخولهم حلب .

تتحدث مصادرنا وعلى الاخص كتاب مرآة الزمان (القسم الذي يحوي تاريخ غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ الذي عاصر الاحداث التي نحن بصددھا فسجلھا بشكل مفصل) عن مجموعات من التركمان اطلق عليها اسم الناوكية ، وتروي هذه المصادر بأن معظم الناوكية قد هاجر الى الاراضي البيزنطية ، وجنوب غربي بلاد الشام مع فلسطين ، ويبدو أن الناوكية كانت أول جماعات التركمان التي دخلت بلاد الشام ونشطت فيها ، وانها جاءت الى الجنوب الغربي من بلاد الشام قبل سواها من المناطق ، ويبدو انها سلكت الطريق الساحلي عن طريق انطاكية .

لقد كان زعيم الناوكية سنة ١٠٧١ م في جنوبي غربي بلاد الشام يدعى قرلو ، ويتحدث ابن العديم عن قرلو هذا كابن أخ لابن خان ، ولقد هجر ابن خان حلب سنة ١٠٧٠ م ، وتوجه نحو صور حيث دخل في خدمة قاضيها ابن عقيل الذي كان حاكمها أيضا ، ولقد دبر ابن عقيل في السنة نفسها أمر اغتيال ابن خان بواسطة احد أتباعه

التركمان ، ويمكن الاستنتاج من كل هذا بأن ابن خان كان من جماعة الناوكية ، وربما كان زعيم جميع الناوكية الذين دخلوا بلاد الشام في أيامه .

ويبدو أن كلمة ناوكية لم تكن اسما لاحدى عشائر التركمان ، ولكنها كانت اسما أطلق على جماعات محددة من المرتزقة الذين لم يدينوا بالطاعة للسلطان السلجوقي ، ولقد كان التركمان يشكلون الأكثرية العددية في هذه الجماعات ، وحوت الأقلية عناصر مختلفة من السكان المحليين لخراسان والعراق والجزيرة ومن بقايا جند الدول التي زالت مع انتصار السلاجقة وقيام امبراطوريتهم ، هذا ولقد مر معنا كيف أن ابن خان ذهب بعد فتح محمود بن نصر لحلب . ذهب شرقا نحو الجزيرة والعراق ثم عاد بعد قرابة سنة ومعه ألف من الرماة من غز وكرد وديلم وأوج .

لم تقدم الناوكية الطاعة للسلطان السلجوقي ، فلقد هجر ابن خان مدينة حلب سنة ١٠٧٠ م عندما سمع بتوجه السلطان الب أرسلان نحوها للاستيلاء عليها ، ذلك أنه خاف على حياته لذلك هرب ناجيا بها نحو صور حيث لقي حتفه ، وعندما وصل السلطان الب أرسلان إلى حلب قام بحصارها لفترة من الزمن (هذه قضية سنتعرض لها بالدراسة بعد قليل) ثم تصالح مع محمود بعدما أخفق في الاستيلاء عليها ، ولقد اتهم الب أرسلان ابن خان بأنه كان السبب الذي جعل محمودا يقاتل ضد السلطان ويرفض الخضوع له .

هذا ويبدو أن الناوكية كانت لهم علاقة بالتركمان العراقية ، او هم أنفسهم بأسم جديد (٦) هاجروا تحت ضغط السلاجقة وتركمانهم من العراق إلى بيزنطة والجزيرة ، وعندما تدفق هؤلاء على الأراضي البيزنطية توغل الناوكية أكثر فاكثرت داخل بيزنطة وجاء بعضهم إلى بلاد الشام ، وظلوا في هذه البلاد حتى ذابوا في جسم التركمان أتباع السلاجقة الذين جاؤوا الى الشام بعد عام ١٠٧٠ م كما سنرى ، ومع أننا سنتحدث عن أعمال الناوكية في جنوب

الشام وشماله بكثير من التفصيل إلا انه من المفيد أن نذكر هنا بأنه على الرغم من أن الناوكية لم تخضع للسلطان السلجوقي إلا أن أعمالهم في بلاد الشام قد مهدت للاستيلاء السلجوقي وساعدت على انجازه (٧) .

ولقد كان ابن خان وأتباعه أداة فعالة في يدي محمود بن نصر ، فبوساطتهم نال منصب الامارة ، وبقوتهم استطاع تدعيم نفسه في منصبه كما تمكن من إخضاع كافة القبائل البدوية التي كانت تسكن في إمارته ، وفي عمله هذا كان محمود - ربما بدون شعور - يمهّد السبيل لتبديل سياسي هائل في بلاد الشام ، ألا وهو إزالة القبائل العربية من على مسرح السياسة وإحلال التركمان محلها .

يروى ابن العديم أن محموداً تحرك في عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م جنوباً نحو مدينة حماة ، وكان على رأس قوة مؤلفة من بعض أتباعه من الكلابيين ومن ابن خان وأتباعه ، ولقد كان هدف محمود إخضاع جميع البدو القاطنين في منطقة حماة آنذاك ، حيث أن هؤلاء البدو حاولوا خلق فتنة بينه وبين عمه عطية بن صالح الذي كان موجوداً آنذاك في مدينة حمص (٨) .

لقد كان مركز عطية بعد تركه لحلب كما جرت عادته إما في الرقة أو في الرحبة (٩) ، هذا ولا يوضح ابن العديم حين روى خبره هذا لماذا كان عطية سنة ١٠٦٧ م في مدينة حمص التي كانت آنذاك تحت الحكم الفاطمي !

ويقدم كلا من غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ وابن تغري بردي شرحاً للسبب الذي دعا عطية للوجود في حمص ، فقد روي بأن المستنصر الخليفة الفاطمي كتب سنة ١٠٦٧ م إلى محمود بن نصر طالباً منه : أن يرسل خراجاً سنوياً عن إمارة حلب إلى القاهرة ، وأن يقوم بغزو الأراضي البيزنطية ، وأن يقوم بطرد ابن خان وأتباعه من إمارته ويتوقف عن استخدامه في أعماله ، ولقد رد محمود على المستنصر موضحاً له بأنه كان لا يستطيع تنفيذ واحد من مطالبه

الثلاثة هذه ، ذلك لأنه كان لا يملك أي فائض من المال حتى يرسله إلى القاهرة ، حيث أنه أنفق مبالغ كبيرة أثناء عمله لانتزاع حلب من عمه عطية ، وكان القسم الأكبر من هذه المبالغ قد استدين من بعض الناس ومن الأمباطورية البيزنطية التي عقد بينه وبينها معاهدة صداقة وأودعها أحد أولاده رهينة من أجل الوفاء بالمعاهدة ومن أجل تسديد الديون ، لهذا كان من غير المعقول الأغارة على الأراضي البيزنطية ، ثم لم يكن هناك أسباب مسوغة للحرب ، وفيما يختص بابن خان وأتباعه قال محمود في جوابه للمستنصر : «أما ابن خان والغز الذين معه فيدهم فوق يدي ، وإنما استخدمتهم مصانعة لهم وكفا لفسادهم فإن رؤي صرفهم فينفذ إليهم من هو أقوى عليهم مني وأنا أساعده » ، ولما وصل جواب محمود إلى المستنصر كتب إلى بدر الجمالي واليه على دمشق : «إن ابن الزوقلية (أي محمود بن نصر) قد خلع الطاعة وإنه مال إلى الجهة العراقية ، فتسير وتقاتله » .

ولما كان بدر غير قادر على تشكيل أية حملة أو قيادة أية قوات ضد حلب فقد كتب « إلى عطية وهو بالرحبة أن يسير إلى حلب ووعده بالمساعدة » .

وعندما استلم عطية رسالة بدر ترك الرحبة وجاء إلى حمص حيث بدأ يجند جيشا من بين قبيلة بني كلاب وغيرها من القبائل ، وعندما وصلت أخبار تحركات عطية هذه وأعماله إلى محمود ترك مدينة حلب و«أتى حماة ووطىء جميع العرب وأذلها » ومرة أخرى كاد محمود أن يصطدم بعطية لكن عطية لم يجرؤ على القتال « لمعرفته بغدر العرب به مرة بعد أخرى وأراد أن لا ينهدم مجد آل مرداس » ، ومع ذلك كان لا بد من إيجاد مخرج يعود على أساسه محمود إلى حلب ، ويتوقف به عطية عن أعماله ، وبالوقت نفسه ترضى به القاهرة ونائبها في دمشق ، وهنا تدخل ابن عمار قاضي طرابلس وحاكمها «بينهم وأصلح الحال ، واستحلف محمود وعطية لصاحب مصر ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه على أن الرحبة وبالاس والرقة والبلاد الفراتية لعطية وحلب لمحمود ، وسار عطية إلى دمشق فأقام في خدمة صاحب مصر» (١٠).

ليس لدينا معلومات عن الاسباب التي جعلت قسما كبيرا من قبيلة كلاب مع غيرها من القبائل تتجمع في عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م في منطقة حماه ، ذلك ان اماكن تجمهر كلاب كانت في العادة في اطراف حلب ومعرة النعمان او في مناطق الرقة والرجبة ، وبرغم ندرة المعلومات فانه من المتصور ان ما كانت تتعرض له الجزيرة مع شمالي بلاد الشام انذاك من ضغط بسبب هجرة التركمان اليهما وتوغلهم فيهما جعل الكثير من القبائل تترك ديارها غربا وجنوبا ، ولقد كانت اعالي الجزيرة وخاصة منطقة الموصل في هذه الاونة معرضة للضغط المباشر الناجم عن الهجرة ، ولقد تأثرت قبيلة عقيل التي كانت تحكم الموصل تأثرا كبيرا بسبب تدفق التركمان ، وكان مسلم بن قريش هو امير الموصل ، ولقد وجد مسلم مع قبيلته انفسهما مكرهين على الانزياح تدريجيا عن ديارهم والتحرك غربا ، ولقد كان التركمان يشعرون ان الموصل والدولة العقيلية هما العقبة الرئيسية في طريقهم لد نفوذهم على الشام والجزيرة ، ولكن لما كانت هجرة التركمان عبارة عن تدفق بشري له هدف ، ولكن ليس له ناظم واحد ، فإن الكثير من التركمان توغلوا في الشام وغيره قبل الاستيلاء كليا على الموصل ، ومع ذلك ما كانت الشام والجزيرة لتصفو مشاربهما للغز قبل إنهاء قوة العقيليين وتحطيمها مع غيرها من قوى البدو العرب .

واخذت عقيل تتحرك تدريجيا نحو الغرب ، ولقد كانت الدولة المرداسية هي العقبة الرئيسية التي اعترضت سبيل هذا التحرك ، لذا كان لا بد من احتلالها والقضاء عليها وهذا ما حصل ، والأمر الذي يعجب منه الباحث هو كيف سعت القبائل العربية في الجزيرة والشام إلى «حتفها بظلفها» حيث انها ليس فقط لم تستطع إقامة تعاون ووحدة بين صفوفها ضد الغزاة التركمان بل صرفت معظم قواها وبددتها في نزاعاتها الداخلية فمكنت خصمها من رقابها واعطته بحماقتها وجهلها ديارها وسيادتها .

لقد اوردنا اعلاه بان عطية بعدما تصالح مع ابن اخيه محمود سار إلى دمشق ، واثناء وجوده في دمشق قام مسلم بن قريش سنة

١٠٦٨ م بغزو بلدة الرحبة فاحتلها وضمها إلى أملاكه ، كما قام بعد هذا بعامين في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ - ١٠٧١ م بغزو بلدة الرقة فاحتلها أيضا وضمها إلى أملاكه .

الآن وقد خسر عطية جميع أملاكه طلب من الخلافة الفاطمية مساعدته من أجل استعادتها ، ولكن هذه الخلافة ما كان بإمكانها تجنب مشاكلها الداخلية فما بالك بمد يد المساعدة الخارجية؟! لذا ترك عطية دمشق و هجر الشام إلى بيزنطة ، وقدمت بيزنطة ، بعض المساعدات له ، فقام في عام ١٠٧١ م بغزو أراضي حلب ، لكنه أخفق في تحقيق أي شيء لوجود التركمان ، ولما كانت بيزنطة آنذاك تعاني من التركمان فإنه لم يكن بإمكانها مساعدة عطية بقوات كبيرة ، فاضطر هو إلى السفر إلى القسطنطينية حيث توفي فيها في حزيران عام ١٠٧٣ م (١١) .

ويبدو أن بيزنطة كانت تستهدف حين قبلت عطية بن صالح في أراضيها واستخدمته ضد أراضي إمارة حلب أن تحد من نشاط تركمان محمود أو تطردهم من بلاد الشام وأن تحتل حلب ، ولقد كانت حلبا قبل عام ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م - وايضا بعد ذلك - مركزا هاما بالنسبة للتركمان الذين كانوا يتوغلون داخل الأراضي البيزنطية في أسية الصغرى ، فبعض من التركمان استقر في حلب كما رأينا وبعضهم الآخر قد عد حلبا مركزا هاما من أجل بيع ما كانوا يحتاجونه من مؤن ومعدات ، ولقد كانت كميات المؤن التي حصل عليها التركمان من الأراضي البيزنطية هائلة ، ويكفي أن نسوق هنا مثلا ما ذكره ابن العديم في حوادث سنننتي ٤٥٩ - ٤٦٠ هـ ١٠٦٦ - ١٠٦٧ م ، ففي هاتين السننتين : «طلعت طائفة كبيرة من الترك ، فنزل بعضها على دلوك - من نواحي حلب - وتقدم منهم نحو ألف نهبوا بلد أنطاكية عن آخره ، وأخذوا نحو أربعين ألف جاموس ، وقيل أكثر ، حتى أن الجاموس كان يباع بدينار ، وأكثره بدينارين وثلاثة ، وأما البقر والغنم والمعز والحمير والجواري فلم يقع على ذلك احصاء من الكثرة ، وكانت

الجارية تباع بدينارين ، والصبي بتطبيقه نعال للخيل ، وخرب بلد الروم خرابا لم يسمع بمثله ، وبقيت الغلات في البيادر ما لها من يرفعها منهم ، حتى كان الفلاحون وسائر العوام يمضي الواحد منهم ويأخذ ما يريد ، فلا يجد من يدافعه عن ذلك ، لأن الروم تحصنوا في الحصون والجبال والمغائر . وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئا ، لأن الترك اتوهم على غفلة وكان مقدمهم أفشين بن بكجي قطع الفرات إلى بلاد الروم ، ثم خرج إلى أعمال حلب وباع الغنائم التي كانت معه ... وقيل أن أصحاب مؤونة السوق بحلب حصل في دفاترهم نحو سبعين الف مملوك ومملوكة سوى ما بيع بغير مؤونة في بلد الروم وسائر البلدان . وأخذ من أصحاب أنطاكية مائة الف دينار ومثلها من ثياب الديباج والآلة « (١٢) » .

وأمام أعمال التركمان هذه جهدت بيزنطة التي كان امبراطورها الآن رومانوس دايجينوس لايقاف التركمان ومنعهم من غزو أراضيها وأرادت اغلاق حدودها في وجههم باحتلال بعض المواقع الاستراتيجية الحصينة داخل الأراضي الاسلامية ، ولما كان التركمان ينفذون الى داخل الأراضي البيزنطية ويخرجون منها من ثلاثة مناطق كانت هي : ثغور شمالي بلاد الشام وثغور أعالي الجزيرة وبلاد أرمينية ، فقد وضع رومانوس كما يبدو خطة تستهدف اغلاق هذه المنافذ على ثلاث مراحل ، وفي هذا السبيل قام بنفسه بقيادة ثلاث حملات ضد بلاد الشام وأعالي الجزيرة وحدود أرمينية وذلك في السنوات ٤٦١ - ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٧١ م ، ولقد وجهت الحملتان الاول ضد اراضي امارة حلب في الشام والجزيرة وكانت معركة مناز كرد الشهيرة نتيجة الحملة الثالثة وطبعاً كانت اهمها على الاطلاق لان نتائجها كانت حاسمة بالنسبة للعالمين الاسلامي والمسيحي في العصور الوسطى ، ولناخذ قبل دراسة معركة مناز كرد بدراسة حملتي الامبراطور رومانوس اللتين قادهما قبلها ضد امارة حلب .

لم يكن لهاتين الحملتين نتائج خطيرة وكل ما حصله رومانوس

منهما هو اعمال الغارة في اراضي حلب واحتلال مدينة منبج ، وليس من الواضح بشكل اكيد في المصادر العربية فيما اذا كان احتلال منبج قد تم اثناء الحملة الاولى أم اثناء الحملة الثانية ، هذا وان مخائيل بسللوس المؤرخ الفيلسوف البيزنطي ، الذي كان يعمل في القصر الامبراطوري في القسطنطينية والذي عاش هذه الاحداث وشارك فيها ، لايساعدنا كثيرا فيما كتبه على حل هذه المسألة وكان كل ما قاله حول الحملة الاولى هو : « ترك (رومانوس) مدينة (القسطنطينية) يصحبه جيشه كله ، وزحف ضد البرابرة ، دون ان يعرف الى اين سيمضي او ماذا سيعمل ، لقد جاب الفيافي يخطط ليمضي في طريق لكنه كان يزحف على آخر ، توغل في اراضي سبورية والجزيرة ، والنجاح الذي حققه كان فقط قيادة جيشه داخل هذه الاراضي ، والقيام بمركزة بعضا من رجاله في اعالي بعض الهضاب ثم احذارهم وتقطيعهم في ممرات ضيقة ، ومن ثم معاناة فقدان عدد كبير من الجرحى خلال هذه التحركات ، ومهما يكن الحال فلقد عاد وعليه مظاهر النجاح مع انه لم يجلب لنا اية غنائم لامن اهل الجزيرة والشام ولا من الفرس ، وكان كل ما قام به هو انه زحف ضد العدو » ، وبسللوس متحامل في حديثه هذا على رومانوس ومع ذلك يستخلص من روايته هذه بان هدف رومانوس كان مطاردة التركمان وتعقبهم في اراضيهم ولا يمكن لاية عملية تعقب ان تخضع لنظام مناورة محدد تبعا لقواعد عسكرية ثابتة بل ذلك يسير في العادة حسب الوضع وما يحتاجه ساعة ساعة ؛ وعلى كل حال يبدو ان احتلال منبج قد تم اثناء الحملة الثانية ، لان المؤرخين العرب يروون بان المدينة عندما سقطت سقط معها الكثير من اهلها في الاسر ، وهذا ما يؤيده بسللوس - الذي اشترك في هذه الحملة - بقوله : «وقد أخذ حفنة من رجال الأعداء أسرى » .

ويبدو من روايات المؤرخين العرب بأن رومانوس قد قام في الحملة الأولى بغزو امارة حلب من منطقة انطاكية ، فاستولى على بعض حصون الامارة وهزم محمودا وقواته العربية التركية ، لكنه اكره على الانسحاب بسبب وزود اخبار اليه بأن احد مقدمي

التركمان و اسمه افشين قداستولى على مدينة عمورية وأنه على ذية متابعة توغله داخل الأراضي البيزنطية نحو القسطنطينية ، ويبدو أن رومانوس غزا امارة حلب في الحملة الثانية من أراضي الجزيرة فاستولى على بلدة منبج وهدمها وعمر فيها حصنها القديم حيث ترك فيه حامية ثم أخذ طريقه عائدا نحو القسطنطينية بسبب قلة المؤن في المنطقة (١٣) .

لم ينجم عن حملتي رومانوس مع هجرة التركمان حتى الآن أي خطر حقيقي على الدول التي كانت قائمة في الشام والجزيرة ، ولكن الخطر جاء مع الحملة الثالثة ، لكن ليس بسببها ولا من الأراضي البيزنطية ، انما من خراسان وبسبب ما كان يجري في مصر ، او بالحري في القاهرة انذاك ، فلقد كانت القاهرة تعيش في هذه الآونة فترة من المنازعات السياسية من أجل السلطة فيها وبغية التسلط على الخليفة المستنصر ، وكان ناصر الدولة الحمداني (أحد احفاد ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل والاخ الاكبر لسيف الدولة مندوح المتنبى وامير حلب) أبرز اطراف النزاع في القاهرة وكان قد « قصد ابطال دعوة المستنصر بالله وتغيير دولته ، فندب الفقيه ابا جعفر محمد بن البخاري قاضي حلب ، وبعثه رسولا الى السلطان الب ارسلان ابي شجاع محمد بن داود ملك العراق وخراسان يساله ان يسير اليه عسكريا ليقوم الدعوة العباسية وتكون له مصر ، فمضى ابو جعفر الى خراسان ، وبلغ السلطان الب ارسلان رسالة ناصر الدولة بن حمدان ، فتجهز من خراسان في عساكر عظيمة » . وتحرك الب ارسلان على رأس قواته غربا ، وكان تحركه بطيئا ، وعلى كل حال لم يكن بإمكان الب ارسلان بسبب طبيعة قواته وطبيعة الحواجز التي اصطدم بها الوصول الى مصر ، فلم يتجاوز أسوار حلب .

ولقد كانت الرها أولى العقبات التي اعترضت سبيل تقدم قوات هذا السلطان ، وكانت هذه المدينة انذاك تحت الحكم البيزنطي ، وقد وصلها الب ارسلان في خريف ١٠٧٠ م واخذ بحصارها وشدد

الهجوم عليها من جهة الشرق » وكان فيها يومئذ دوقس يسمى باسيل بن اسار بن ملك الغز من قبل ديوجانيس الملك ، وكان بالرها يومئذ ثمانية آلاف أرمني وعشرون ألف سرياني ، وستة آلاف رومي وألف أفرنجي « ، واخذ السلاجقة بقطع أشجار الحدائق وبطمر الخنادق بجانب الأسوار الشرقية ، واخذت مجانيقهم بقذف الأسوار مع من كان عليها ، وشرع النقبابون في فتح فجوات في السور والأبرجة ، ودام ذلك خمسين يوما (وفي روايات أخرى ثلاثين يوما) وكان يقاتلهم بالافيلة وعليهم الرجال لابسين الحديد ، فاذا دنوا ليقربوا الحصن طرحوا عليهم الصخور العظيمة فيقتلوا منهم . . . ثم انه زحف اليها بسبع دبابات عظيمة ، فعملوا عليها صواري عظيمة وشحم وزفت ونفط ، وطرحوا عليها من الحصن صخور ونار واحرقوها ، وقتلوا كل من كان فيها .

ثم أمر الملك العادل بقطع الأشجار والأخشاب ورميها في الخندق الذي على الحصن حتى يمشي الخيل والرجال عليهم إلى الحصن ، فتوصلوا اليها من داخل المدينة من الذقوب واطلقوا فيها النيران فتأججت النار حتى صار الخندق نيران تلتهب ، ووقع الصياح عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافتراء والشتيمة ، فسانفذ اليهم رسولا يقول لهم : ما يحسن بي أن أرحل عنكم بعد قتالكم ، وقد اطاعتني جميع البلاد ، الا بعد ان يستقر لي عليكم مال يسير ، وانا ارحل عنكم ، لنلا يصير علي فضيحة » ويبدو ان اتفاقا ما قد تم عقده بين اهالي الرها والسلطان الب أرسلان ، على اساسه اوقف القتال ضد المدينة وسحب قواته غربا نحو حلب ، وعند وصوله إلى الفرات قدم له جميع امراء دويلات الجزيرة واصحاب السلطة فيها الولاء وفروض الطاعة ، وفي الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٤٦٣ هـ التاسع عشر من كانون الثاني / ١٠٧١ م عبر الب أرسلان وقواته الهائلة نهر الفرات ، وقبل عملية العبور هذه ارسل الب أرسلان وراءه محمود بن نصر يدعو اليه كي يقدم اليه الطاعة ويفتح ابواب حلب لاستقباله ، ولقد رفض محمود - بتحريض من ابن خان - الاستجابة لطلب السلطان وأثر الاعتصام بحلب واتخاذ موقف

الدفاع ، وذلك بعدما شحن مدينة حلب بالرجال الذين هبوا للدفاع عنها من سائر أنحاء بلاد الشام . وزحف الب أرسلان بقواته نحو حلب ، وكان تحركه في غاية البطيء ، لذلك احتاج الى أكثر من مدة شهرين حتى وصلها ، وجدد الب أرسلان في هذه المدة مراسلاته مع محمود بن نصر ، وأرسل له أكثر من بعثة تدعوه لترك حلب والقدوم إلى معسكر السلطان «لخدمته ودوس بساطه» ، وكان كلما اقترب السلطان من حلب كلما ازداد إصرار محمود على المقاومة ، ولما كان الب أرسلان هو سلطان الاسلام ، وقد فوض الخليفة العباسي إليه أمر اخضاع بلدان الاسلام وردها الى حظيرة السنة ، فقد قرر عندما وصل حلب ووجد الأمير محمود بن نصر مصرًا على عدم الخضوع، قرر أخذ المدينة بقوة السلاح ، لذلك قامت قواته بمحاصرتها .

وكما حدث من قبل في الرها حاصرت قوات التركمان مدينة حلب لمدة تزيد على الشهر ، وبذلت كل جهد ممكن لاقتحام أسوار المدينة فأخفقت ، وتعود الأسباب الرئيسية لهذا الاخفاق إلى : المقاومة العنيدة والدفاع المستميت الذي بذله أهالي حلب ، والى متانة أسوار حلب وقوة أبراجها وحصانيتها ، ثم إلى الطبيعة البدوية للجيش السلجوقي وإلى نوعية تكوين أسلحته ، فقد كان التركمان معتادين على المعارك المكشوفة لمهارتهم الفائقة في استخدام القوس والنشاب ولم يكونوا قد اتقنوا بعد استخدام أسلحة دك الأسوار أو تسلقها ، ثم إنه كان ضد مزاجهم النفسي البقاء في مكان واحد لفترة طويلة ، من أجل أخذ مدينة واحدة مهما ضخمت غنائمها فانها لن تعادل تكاليف الإقامة والبعد عن الأهل ، ثم لماذا تحاصر المدن وأراضي بيزنطة وريف الشام والجزيرة فيهما من الغنائم السهلة التناول الشيء الكثير .؟

وبرغم كل هذا فقد شعر السلطان الب أرسلان أن اخفاقه في أخذ حلب بعد إخفاقه في الاستيلاء على الرها سيحبط من سمعته ، وسيكون له نتائج غير محمودة ، على امبراطوريته الناشئة ، لذلك أصر على اقتحام المدينة مهما كلف الثمن ، وقامت - بناء على

هذا - قواته بعدة زحوف على المدينة ولكنها كانت كل مرة تصد خائبة مع خسائر كبيرة ، ولقد كانت معنويات المدافعين عالية جدا ، وكانوا واثقين من موقفهم وقوة دفاعهم ، ولقد عبر اهالي حلب عن ذلك بأسلحتهم وبطرائق خاصة أخرى فيها نوع من الغرابة إن لم نقل الشذوذ .

لقد كان أقوى أبراج اسوار المدينة برج يدعى برج الغنم وقد ركزت القوات السلجوقية معظم جهودها على هذا البرج وعملت من أجل أخذه او خرقه ، وكانت مجانيق السلاحقة تقذف هذا البرج بلا انقطاع ، ولقد استطاع الحلبيون رد جميع الهجمات التي وجهت ضد هذا البرج ، ثم قاموا في أحد الأيام فعصبوا هذا البرج « بشقة اطلس وكان السلطان نازلا بميدان باب قدسرين ، فسأل عن ذلك فقيل : هؤلاء الحلبيون يقولون على سبيل المزاح ، قد صدع البرج رأسه من حجارة المنجنيق فقد عصبوه ، فغضب ، وفرق في تلك الليلة ثمانين ألف فردة نشاب ... غير ما رماه بقية العسكر . وأصبح وأمر بالزحف ، فجد الناس في قتال البلد ، وحمل السلطان بنفسه في ذلك اليوم ، فوقعت يد فرسه في خسف كان هناك ، وأصاب في الحال فرسه حجر المنجنيق فركب غيره ، وعاد وصرف الناس عن الحرب ... وكان عسكره دائرا بالبلد من جميع وجوهه » ، وعندما أدرك السلطان صعوبة أخذه لحلب بالقوة « راسل الأمراء من بني كلاب وأحضرهم من البرية فوصلوا إليه ، وعول على تقليد بعضهم وتركه في مقابلة محمود » .

عندما وصلت أخبار هذا العمل إلى محمود بن نصر الذي كان يعرف جيدا أخلاق افراد قبيلته ، لاحظ مدى الخطر الذي هو فيه ، لذلك بادر من طرفه بالتحرك بسرعة ، وسعى للتوصل إلى مصالحة مع السلطان يصون بها ملكه في حلب مع كرامة السلطان وسمعته ، لذلك كتب إلى إيتكين السليماني الذي كان من حاشية السلطان والذي كان قد جاء إلى حلب رسولا أكثر من مرة ، فأخبره بأنه على استعداد للخروج من حلب «لدوس بساط السلطان وخدمته» ، وأشعر

محمود بالإيجاب وشجع ، وعلى هذا الأساس خرج سرا من حلب في ليلة الأول من شعبان ٤٦٣ هـ / ٤ أيار ١٠٧١ م ، مرتديا زيا تركمانيا ومعه امه التي كانت تعرف باسم السيدة ، وتوجه وهي معه الى معسكر السلطان فقبلاه وتم بينهم الاتفاق على : بقاء محمود في إمارته ، وعلى أن يخرج في اليوم التالي علنا فيقدم فروض الطاعة للسلطان الذي بدوره يعلن رضاه وموافقته على بقائه أميرا لحلب ، وفعلا تم اعداد الترتيبات لذلك « فخرج - محمود - إلى السلطان بنفسه ، ومعه والدته علوية ، المعروفة بالسيدة وأخذ مفاتيح البلد معه ، فدخل والعسكر سماطان بين يديه فخدماه ، وسلما عليه ، فأكرمهما وأحسن إليهما وأطلق له البلد ، وشرفه ، وخلع عليه ، وكتب له توقيعا بحلب ، وتردد خروجه محمود إلى خدمته مرة بعد أخرى وقرر معه السلطان أن يخرج بعسكره ، ويضيف إليه السليمانى وأن يتوجها إلى بلاد دمشق والأعمال المصرية لفتحها ، ففعل ما أمر به ، وعاد السلطان إلى بلاده . » .

ولكي يعزل السلطان إخفاقه في احتلال حلب بالقوة ، ولكي يسوغ انسحابه صرح قائلا : « أخشى أن افتح هذا الثغر بالسيف فيصير إلى الروم » وطبعاً إن هذا تسويغ تافه ومرفوض فبيزنطة كانت تعرف حلباً وتعرف مدى قوتها وكان في الغالب من سياستها إبقاء هذه المدينة مستقلة ، وفي الحقيقة نحن لسنا متأكدين فيما إذا كان السلطان الب أرسلان قد قال هذا حقاً ، أو أنه كان نوعاً من الدعاية الرسمية ، أم أن القضية كلها كانت اختراعاً من قبل أحد المؤرخين ، وليس لدينا أيضاً ما يقص تفاصيل اتفاقية محمود مع السلطان ، وكل ما نعرفه أن السلطان لم يدخل حلب كما لم يدخل أحد من جنده إليها ، وأنه بعد تصالحه مع محمود قرر العودة إلى خراسان وعدم متابعة سيره إلى مصر .

وعندما عبر الب أرسلان الفرات مرة ثانية وصلته (كما هو مرجح) الأخبار بتحرك جيش بيزنطي هائل نحو بلاد الاسلام بقيادة الامبراطور رومانوس داجينوس ، لهذا غير الب أرسلان وجهته

وانحرف شمالا لمواجهة هذا الجيش الزاحف ، ولقد تصدى الب أرسلان لقوات بيزنطنة واشتبك معها في أرمينية عند موقع اسمه مناكرد (قرب بحيرة وان في تركيا الآن) فهزمتها ، ولولا هذا النصر الخطير والبعيد التأثير لكانت حملة الب أرسلان كلها بلا ثمرات . ونظرا للأهمية القصوى لهذه المعركة ولكونها من معارك التاريخ الفاصلة في عالم العصور الوسطى ، ولأنها تعدل - إن لم تفق - معركة اليرموك بالنسبة للعلاقات الاسلامية البيزنطية فلا بأس أن نوليها الاهتمام ، ثم نعود بعد ذلك لمتابعة دراسة التركمان وأعمالهم في بلاد الشام والجزيرة .

لقد مثل بيزنطة في هذه المعركة الإمبراطور رومانوس دايجينوس الذي تحدثنا عن حملته على بلاد الشام ، ويعود رومانوس في أصله إلى عائلة أرستقراطية عريقة أصلها من أسر أسية الصغرى ، ولقد وجد دايجينوس نفسه منذ أصبح إمبراطورا في سنة ١٠٦٨ م يواجه عدة مشاكل داخلية وخارجية ، فأولى معظم وقته وطاقت أمبراطوريته للمشاكل الخارجية حيث كانت أكثر الحاحا ، ولقد تمثلت المشاكل الخارجية في الخطر الذي أبرزه التركمان في هجرتهم وفي أعمال اجتياحهم للأراضي البيزنطية ، ومن أجل إيقاف التركمان ووضع حد لتغلغلهم وتخريبهم للأناضول قاد رومانوس الحملتين المتتاليتين اللتين تحدثنا عنهما ، ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لحملة كبيرة جدا أراد أن يجتث بها التركمان من بلاده ويكتسب بعض المواقع داخل الأراضي الاسلامية ليشحنها بالجند حتى يقفوا للتركمان بالمرصاد ، ولقد قاد رومانوس قواته التي أعدها تجاه أرمينية في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، ويبدو أنه أراد أن يستغل فرصة غياب السلطان الب أرسلان في بلاد الشام .

وبلغ الب أرسلان خبر تحرك القوات البيزنطية بعد فراغه من أمر حلب وأثناء عودته - أو أعداده العدة للعودة - شرقا ، هذا ويروي غرس النعمة بأن السلطان استقبل قبيل مغادرته منطقة حلب بعثة

بيزنطية أرسلها الامبراطور رومانوس ، وان هذه البعثة عادت إلى الامبراطور أثناء تحرك السلطان شرقا بعد ما سايرت جيوشه مسافة كبيرة .

ولا يخبرنا غرس النعمة بالتفصيل عن مهمة هذه البعثة البيزنطية التي جاءت من أجلها ولا عن نوع المباحثات التي أجرتها مع السلطان ألب أرسلان ، إنما يذكر فقط بأنها حملت عرضا « برد منبج وأرجيش ومنازكرد إليه ويحمل الهدية » (١٤) لكن مقابل ماذا ذلك مالا يوضحه .

ويذكر المؤرخ البيزنطي ميخائيل بسللوس ما يفيد بأن الامبراطور بعد أن تحرك من القسطنطينية تابع سيره حتى وصل إلى قيسارية وهناك توقف عن التحرك وبدأ يفكر بالتراجع إلى القسطنطينية ، لكنه حاول - قبل تراجعه - أن يتوصل إلى اتفاقية مع عدوه ربما بهدف وضع حد لغارات التركمان على بلاده ، هذا ولا يوضح بسللوس الوسيلة التي اتبعتها الامبراطور البيزنطي من أجل هذه الغاية ، إنما يبدو مما رواه غرس النعمة أن الامبراطور أرسل بعثة إلى السلطان وصلته وهو في منطقة حلب وعرضت عليه عرضه الذي ذكرناه قبل قليل ، ولئن لم يقدم لنا كلا من غرس النعمة وبسللوس - وهما ممن عاصر هذه المعركة - تلميحا او تفصيلا لشروط الامبراطور فإننا نجد عند ابن العبري الذي ذكر - خلافا لما رواه غرس النعمة - بأن الامبراطور عندما راسل السلطان اقترح عليه أن يتنازل له عن ملكية مناكرد وأرجيش مقابل تخلي الامبراطور عن منبج ودفعه جزية سنوية اذا ما أوقف السلطان غارات التركمان ضد الأراضي البيزنطية ، ولقد ذكر ابن العبري بأن السلطان قد قبل بمقترحات الامبراطور وتنازل له - تنفيذا للاتفاق - عن جميع الأراضي حتى بلدة أخلاط .

لم يتابع تنفيذ هذا الاتفاق (هذا اف كان قد نفذ في الواقع منه اي شيء) إذ انه من المتصور ان يكون السلطان ألب أرسلان قد قبل

بمقترحات الامبراطور ووعده بالتنازل له عن الاراضي حتى اخلاط، ولكن هل كان لديه القدرة على إيقاف التركمان ومنعهم من الاغارة على الاراضي البيزنطية ؟ هذا امر مشكوك به ! على كل حال ان تسارع الأحداث لم ييسر الفرصة لتنفيذ شروط الاتفاق، واصطدمت قوات الب ارسلان بقوات رومانوس .

وقبل الحديث عن اسباب عدم تنفيذ الاتفاق ثم عن الحرب التي وقعت لابد من الاشارة الى ان السلطان الب ارسلان قد قبل بمقترحات الامبراطور البيزنطي لاختشية من الاصطدام معه، ولاتقديرا بان قواته لن تستطيع منازلة القوات البيزنطية ، ولكن كان هدف هذا السلطان وهمه انذاك مد نفوذه وسيطرته على بلدان العالم الاسلامي ، ولم تكن لديه مطامح بالتوسع داخل بيزنطة او سواها من البلدان غير المسلمة ، ويبرهن على هذا انه بعد نصره الساحق في منازكره لم يحاول استغلال هذا النصر ، وانما جهد في التعجيل لاجاد تسوية عاجلة مع رومانوس ، ثم عاد الى بلدان العالم الاسلامي وتابع جهده في مد سيطرته عليها حتى لقي حتفه .

اما اسباب عدم الأخذ بالاتفاق فان بسلولوس الذي عاصر الأحداث وشارك في المعركة فيقول : « عوضا - عن تنفيذ الاتفاق - واما في ياس او بسبب انه (اي الامبراطور) كان واثقا بنفسه اكثر مما ينبغي ، زحف الى القتال » . ان في كلام بسلولوس هذا بعض الغموض وهو لا يفي بالغرض ، لكن على الرغم من هذا فان الامبراطور عندما استأنف زحفه ، كان - كما يبدو - قد صنع ذلك ليس وهو يائس إنما وهو موقن بان النصر سيكون حليفه ، وربما فعل ذلك بناء على المعلومات التي نقلتها اليه بعثته التي عادت من عند السلطان ، فوصفت له رحيل السلطان وحالة الفوضى التي حلت في جيشه اثناء الرحيل ، ويقول غرس النعمة : «وضجر السلطان من المقام بحلب ، فكرر راجعا ، فقطع الفرات ، وهلك اكثر الدواب والجمال ، وكان عبوره شتبه الهارب ولم يلتفت الى ما ذهب من الارواح والدواب ، وعاد رسول الروم مستبشرا الى صاحبه،

فقوى ذلك عزم الروم على اتباعه وحربه .

لقد كان تراجع الب ارسلان هذا «شبه الهارب» قد تم تبعا للطريقة التركمانية في خداع العدو والتغريب به ، فالتركمان كبدا كانت لديهم خططهم الخاصة في الزحف كما كان لهم مواريثهم المتميزة ، في فن السوقية العسكرية ، وتنطلق هذه المبادئ من الاعتماد على طبيعة البدو وخفتهم ومرونتهم في الحركة ، واستحالة خضوعهم لأنظمة ضبط وربط محددة ، فيها يعطي القائد امرا عاما يحدد فيه لقواته البدوية نقطة لقاء وليلة لهذا اللقاء ، ويندفع البداة زمرا وافرادا في اتجاهات مختلفة ، وهنا يظن العدو بانهم تفرقوا الى غير عودة ، لكنه لا يدري ان تفرقهم يفيد قائدهم بتحريضه من قضايا التموين ، ثم يدمر اراضي العدو ويضلل قيادته ويجبرها في كثير من الاحيان على توزيع قواتها ، ثم عندما تصطدم اولى طلائع قوات البدو بجيوش عدوها يقوم هذا العدو في النهار على تحضير خطته لسحق بضعة الاف من البدو ، ولكن هذا العدو يدهش في صباح اليوم التالي عندما يجد قوات البدو قد تضاعفت في الليل الى اضعاف مضاعفة ، لذا تنهار معنويات قواته ، ويتم عامل المفاجأة وهكذا يحقق النصر .

هذا ما طبقه الب ارسلان الذي عندما التقت قواته لأول مرة بقوات رومانوس كان عددها اقل بكثير من القوات البيزنطية ولكن بعد مضي ليلتين تضاعفت هذه القوات ذلك ان الب ارسلان وصل الى قبالة الامبراطور رومانوس في يوم اربعاء واشتبك معه ظهر الجمعة . وقبل الاشتباك ارسل بعثة لمقابلة الامبراطور والتفاوض معه وذلك من حيث الظاهر ، لكن لاستكشاف احوال الجيش البيزنطي وللاتصال بالعناصر الغزية غير المسلمة فيه من حيث الباطن ، ولقد اعد العديد من الكمانن وهياها لساعات الحاجة وللمفاجأة .

ونظرا لان قوات الب ارسلان كانت من الفرسان الرماة ، وقوات بيزنطة كانت من الفرسان الثقال مع المشاه ، فقد قامت خطة السلاجقة على منبدا فصل المشاة عن الفرسان (يمكن تشبيهية

الفرسان الثقيل بدبابات العصر الحالي التي تفقد الكثير من قيمتها بدون حراسة من المشاة ، وايضا لاقيمة كبيرة للمشاة بدون دبابات) وقتل خيول الفرسان ثم القضاء على المجموعتين كل على انفراد، ولقد حصل هذا في معركة منا زكرد كما حصل في سواها من المعارك .

لقد بلغت المصادر العربية في تقدير عدد الجيش البيزنطي فجعلته يفوق المليون مقاتل ، ثم ان هذه المصادر لم تقدر عدد قوات الب أرسلان باكثر من ١٥ الف مقاتل ، ولهذا كان النصر الذي تم بالنسبة لها قد تم بفضل مساعدة السماء اي انه كان عبارة عن معجزة وكرامة «للسلطان العادل» واستجابته لدعاء المسلمين يوم الجمعة ساعة المعركة .

لم تكن الصورة هكذا ابدا ، ولم يكن هناك اية معجزة كل ما في الامر أن قوة بيزنطة التي كانت ربما في حدود الخمسين الفا قد لاقت قوة تركمانية مساوية لها بالعدد نفسه ، انما بميزات قد تم شرحها، يضاف الى هذا ان قسما كبيرا من قوات بيزنطة كان مؤلفا من مزتقة من عناصر غزية غير مسلمة وكان عدد من ضباط الجيش متأمرين ضد رومانوس يعدون انقلابا للاطاحة به وتنصيب امبراطور جديد مكانه ، لذا عندما اصطدمت جيوش رومانوس بقوات الب أرسلان دارت معركة قصيرة - انما حاسمة - تخلى فيها الغز عن البيزنطيين وانضموا الى بني جلدتهم ، وهرب المتآمرون مع عدد كبير من الجند نحو القسطنطينية ، وترك رومانوس في لجة الفوضى والدمار فسقط أسيرا في يد التركمان ، فكان اول امبراطور يأسره المسلمون في تاريخهم .

لقد حطمت هذه المعركة قوى بيزنطة العسكرية وكانت البداية الفعلية لتحول بيزنطة الى تركية ، ثم ان الغنائم التي حازها التركمان كانت أكثر من ان تحصى ، ولم يحاول الب أرسلان استغلال نصره المؤزر هذا بمطاردة فلول البيزنطيين والزحف على القسطنطينية نفسها ، بل اكتفى بان احضر رومانوس الى حضرته

« وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : ألم أرسل إليك رسل الخليفة أطال الله بقاءه في امضاء الهدنة فاييت ؟ ألم أرسل إليك بالأمس أسالك الرجوع فقلت : قد انفقت الأموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت الى هاهنا وظفرت بما طلبت ، فكيف ارجع إلا أن افعل ببلاد المسلمين مثل ما فعلوا ببلادي ؟ ولقد رأيت أثر البغي ! وكان قد جعل في رجليه قيدين وفي عنقه غلا ، فقال: ايها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الأجناس وانفقت الأموال لأخذ بلادك ، ولم يكن النصر الا لك ، وبلائي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا ، فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ما تريد . فقال له السلطان : فلو كان الظفر لك ما كنت تفعل معي فقال : القبيح ، فقال : أه والله صدق ، ولو قال غير هذا لكذب ! هذا رجل عاقل جلد ولايجوز ان يقتل ، ثم قال له : ما تظن الآن ان افعل بك ؟ قال : أحد ثلاثة أقسام : أما الأولى فقتلي والثاني اشهاري في بلادك التي تحدثت بقصدها ، وأما الثالث فلا فائدة في ذكره فانك لاتفعله ، قال : وما هو قال : العفو عني وقبول الأموال والهدية واصطناعي وردي إلى ملكي مملوكا لك وبعض اسفهلاريتك ونائبك في الروم ، فان قتلك لي لايفيدك ، هم يقيمون غيري

فقال السلطان : ما نويت الا العفو عنك فاشتر نفسك ، فقال يقول السلطان مايشاء ، فقال : عشرة الاف الف دينار فقال : والله انك تستحق ملك الروم اذ وهبت لي نفسي ، ولكن قد انفقت أموال الروم واستهلكتها مذوليت عليهم في تجريد العساكر والحروب وأفقرت القوم ، ولم يزل الخطاب يتردد الى ان استقر الأمر على الف الف وخمسمائة الف دينار ، وفي الهدنة على ثلاثمائة الف دينار وستين الف دينار في كل سنة ، وان ينفذ من العساكر الروم ما تدعو الحاجة اليه ، وذكر اشياء فقال : اذا مننت علي عجل سراحي قبل ان تنصب الروم ملكا غيري فيفوت المقصود ولاقدر على الوصول اليهم ، فلا يحصل شي مما شرطته علي ، فقال السلطان : أريد ان تعيد انطاكية والرها ومنبج

ومنازكرد فانها اخذت من المسلمين عن قرب ، وتفرج عن اسارى المسلمين ، فقال : اما البلاد فان وصلت سالما الى بلادي انفذت اليهم بالعساكر وحاصرتهم واخذتها منهم وسلمتها اليك ، ... واما اسارى المسلمين فالسمع والطاعة اذا وصلت سرحتهم وفعلت معهم الجميل ، فامر السلطان بفك قيوده وغله ، ثم قال : اعطوه قدحا ليسقيني ، فظنه له فاراد ان يشربه ، فمنع ، وامر بان يخدم السلطان ويناوله القدح ، فساوما الى تقبيل الأرض ، وناول السلطان القدح فشربه ، وجز شعره ، وجعل وجهه على الأرض ... فلما كان من الغد احضره السلطان وقد نصب له سريره ودسته الذي اخذ منه ، فاجدسه عليه وخلع عليه قباهه وقلنسوة والبسه إياهما بيده ، وقال له : قد اصطنعتك وقنعت بامانتك وانا اسيرك الى بلادك واريدك الى ملكك ، فقبل الأرض ... وعقد له السلطان راية فيها مكتوب ، لا اله الا الله محمد رسول الله ، وانفذ معه حاجبين ومائة غلام ... وركب معه وشيعه قدر فرسخ ، فاراد ان يترجل فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه اليه وتعانقا وعاد السلطان عنه .

ولقد اخفق رومانوس في دخول القسطنطينية ، وجهد بعد ذلك من اجل الوفاء بما التزم به للسلطان ومن اجل استعادة عرشه فاخفق وفقد حياته (١٥) وبعد ايام من مغادرة الب ارسلان لمنطقة حلب قاد محمود بن نصر وايتكين السليمانى قواتهما وتوجها جنوبا لغزو دمشق ، وفي الطريق توقفا عند بعلبك ، وهناك وصلت الى محمود اخبار فيها ان عمه عطية تعاونه قوات بيزنطية من انطاكية اخذ يعمل الغارة في اراضي حلب ، لذا ترك محمود السليمانى وكر راجعا نحو حلب ، ولقد اشتبك محمود مع القوات البيزنطية في أكثر من معركة فانصروا عليه وهزم .

وعندما وجد محمود نفسه غير قادر على دفع البيزنطيين عن بلاده استغاث بزعماء النواكية الذين كانوا مع اتباعهم في جنوب بلاد الشام يعملون للاستيلاء على فلسطين ، ولقد لبى هؤلاء دعوة

محمود وجاؤوا اليه ، ولقد تمكن محمود بفضل مساعدتهم ليس فقط من صد البيزنطيين وايقاف اعمالهم ضد اراضي امارته ، بل استطاع ايضا ان يرد الرحبة الى املاكه مستخلصا اياها من مسلم ابن قريش العقيلي ، ويبدو ان هؤلاء الناوكية قد مكثوا لدى محمود فترة طويلة من الزمن لأن استرداد الرحبة قد تم سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م ، وبعد هذا الصنيع سرح محمود التركمان فتركوه الى فلسطين بعد ان اخذوا منه مبلغا من المال وعددا من الخيول وذلك كأجر لهم ، ويبدو انهم تركوا قسما صغيرا منهم في خدمته ذلك ان القوات البيزنطية لأنطاكية اغارت في سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م على اراضي حلب فاستطاع محمود صدها كما تمكن من الاستيلاء على قلعة السن البيزنطية وضمها الى املاكه .

وفي جمادي الاولى من السنة التالية ٤٦٧ هـ / كانون ثاني ١٠٧٥ م توفي محمود بن نصر وقبل وفاته بعامين تقريبا كان السلطان الب ارسلان قد توفي (٤٦٥ هـ / ١٠٧٤ م) . وبوفاتهما انتهت مرحلة من مراحل التاريخ السلجوقي العام مع هجرة التركمان الى بلاد الشام والجزيرة ، وبدأت مرحلة جديدة وحاسمة هي مرحلة تصفية الناوكية وسقوط الدولة المرداسية ومن ثم اخضاع الشام والجزيرة نهائيا للحكم السلجوقي المباشر (١٦) .

لقد اوردنا بان جماعة الناوكية كانت اول جماعة تركمانية تدخل بلاد الشام كما بينا طبيعة تكوينها البشري ، وكيف انها ناصبت السلطان السلجوقي العداء ، لذلك عندما دخلت الشام انضوت تحت لواء الدول التي كانت قائمة فيه ودخلت في خدمة حكام هذه الدول كما انها عملت في سبيل مصالحها الذاتية ، ومع اننا استتجنا وجود الناوكية في جنوب بلاد الشام وفي مناطق الساحل في طرابلس وصور وسواهما فان المصادر التي وصلت اليها لاتسعفنا بأي شي عن اعمالهم ونشاطاتهم في هذه المناطق قبل حملة السلطان الب ارسلان على حلب ، وكل ما جاء في مصادرنا المتوفرة يشير إلى أن الناوكية تركت شمال الشام الى جنوبه والى سواحلها تحت ضغط

زحف السلطان الب ارسلان مع قواته الهائلة ، لذلك نجد انفسنا مضطرين للحديث عن الفترة ما بعد ١٠٧٠ م .

عندما غادر ابن خان مدينة حلب ذهب « الى ابن ابي عقيل الى صور واقام عنده ، فاحسن اليه ووصله واعطى اصحابه ، وجاء بدر الجمالي فحاصر صور ، فنافق ابن خان وخرج الى بدر فعسكر عنده فهدس ابن ابي عقيل الى غلمان ابن خان وقال لهم : قد عرفتم ما فعلت مع صاحبكم من الجميل ، وما انفقت عليه من الأموال ، وما صلح لي ولاجازاني على احساني اليه ، ولكم علي ان قتلتموه كذا وكذا من المال ، فوثب عليه اثنان فقتلاه وحملوا راسه الى ابن ابي عقيل فطيف به في صور ، وكان عند ابن ابي عقيل جماعة من الغز ففارقوه الى بدر فقوي بهم (١٧) . ولقد كان حصار بدر هذا لصور سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، وشدد بدر الحصار على صور ، فأرسل ابن ابي عقيل « الى الأمير قرلو مقدم الأتراك المقيمين بالشام يستنجده ، فسار اليه في اثني عشر الف فارس فحضر مدينة صيدا وهي لأمير الجيوش بدر فرحل حينئذ بدر فعاد الأتراك « ويصف المؤرخ المصري ابن ميسر قرلو بأنه كان « مقدم الأتراك القادمين من العراق » (١٨) . ولقد استطاع بدر الجمالي في سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م استمالة معظم النواكية الى صفه فأدخلهم في خدمته واستخدمهم ضد القبائل العربية لفلسطين فقاموا « وطردها العرب الذين كانوا قد استولوا على بدر ، ونهبوا الشام ، وطلبوا من بدر المال وهو مقيم بعكا ، فقال: ما عندي مال ، وما سلطتكم على العرب الا لانكم تقتنعوا بنهبهم وما أقطعكم من الشام فقالوا: نحن أخذنا البلاد بسيوفنا .

ثم جاءوا فنزلوا طبرية واقتسموا البلاد واخذوا غلالها وراسل بدر العرب بالرجوع الى الشام وأنه معهم بنفسه وماله فاجتمع من العرب خلق عظيم وقربوا من طبرية ، وعرف النواكية كثرتهم ، فكرهوا لقاءهم ، فاسروا اليهم وكبسوهم . فاسروا وقتلوا ما شاؤوا ، وعادوا الى طبرية ونزلوا من بعد طرابلس .

وكانت حلب في هذا الوقت تتعرض لغارات البيزنطية ، كما سبق وذكرنا وعندما اخفق محمود في صد البيزنطيين استنجد بالناوكية فهبوا لنجدة ، وكان اكبر مقدميهم هو قرلو ولقد استطاع الناوكية مساعدة محمود وعندما انتهت مهمتهم تركوه وعادوا الى اماكن نشاطهم في الجنوب لكنهم تركوا عند محمود قوة مؤلفة من الف فارس ولعل قائد هذه القوة هو احمد شاه الذي سنتعرض لأعماله في حلب في الصفحات التالية .

وعندما عاد الناوكية الى مناطق نشاطهم السالفة في جنوبي بلاد الشام استأنفوا أعمالهم « فنزلوا على حصن عمان بالبلقاء وفيه ذخائر العرب وأموالهم وهو معقلهم ولم يكن عليه لأحد طاعة وهو عز العرب فاحتالوا عليه وملكوه وملك التركمان الشام بأسره وجأؤوا الى الرملة وهي خراب ليس بها أحد ولا لسوقها أبواب فجلبوا اليها الفلاحين وعمروها وضمنوا جزء السلطان عن الزيتون الموجود بثلاثين الف دينار وقرروا قسمة البلاد على النصف ، فقبل انهم باعوا من الزيتون في هذه الدفعة بثلاثمائة الف دينار واعطوا التركمان منها ثلاثين الف دينار وأخذوا الباقي.

أراد الناوكية الآن احتلال دمشق ثم احتلال عكا وطرده بدر الجمالي منها لذلك ذهبوا من الرملة الى دمشق وحصروها وأخربوا الضياع ولقد تمكن والي دمشق الفاطمي من ارضائهم بمبلغ خمسين ألف دينار ، فتركوا دمشق ، ورحلوا الى عكا وبها بدر الجمالي فحصره وكان متقدمهم يقال له قرلو ، فسكن اليه جماعة من بني كلب وأمرائهم من بني القرمطي . وخالطوه وقاربوه واتفق أن قرلو مات على حصار عكا ، فنهب التركمان من قرب من العرب ... وكان بدر الجمالي تأتيه الميرة في المراكب في البحر ، فما كان يبالي في الحصار ، فلما ينسوا منه ساروا الى مصر ووصلوا بلبليس وشنوا الغارات على أعمال مصر ، فلم يجدوا ما يأكلون ولا ما تاكل خيلهم وقيل إن جماعة منهم وصلوا الى وادي القرى وتيماء ووصل منهم سبعة عشر غلاما الى المدينة وزاروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم (١٩) .

وتعرضت الناوكية بعد سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م بعدما توفي قرلو الذي خلف كما يبدو - ابن خان في زعامتها ، الى مشاكل وانقسامات داخلية حيث ظهرت بين صفوفها زعامات جديدة متنازعة ويظهر ، أيضا أنها تعرضت لضغط جاء من قبل التركمان الذين جلبتهم حملة الب أرسلان أو خلفتهم وراءها ، فلقد كانت حملة الب أرسلان في الواقع أكثر من حملة عسكرية بحتة ، لقد كانت أول موجة تركمانية تأتي الشام والجزيرة بقيادة السلاجقة وتحت زعامتهم ، هذا ولقد ترافق ظهور التركمان الجدد في جنوب الشام مع اختفاء بدر الجمالي الذي ارتبط اسمه بنشاط الناوكية ، حيث أن بدر سيذهب الى القاهرة ليستولي على مقاليد الأمور بها وليتحكم (٢٠) بالخلافة الفاطمية وبذلك يكون أول طاغية عسكرية في تاريخ هذه الخلافة التي ستدخل الآن مرحلة النهاية مرحلة تحكم العسكريين بمقاليد الأمور بها كما كان قد حدث للخلافة العباسية في بغداد قبل ذلك بقرون.

تتحدث مصادرنا عن أن أتسز بن أوق الخوارزمي كان أبرز زعماء التركمان الذين خلفوا في الشام بعد حملة الب أرسلان وقد سار ومعه أخوته جاولي ، والمأمون ، وقرلو ، وشكلي الى أعمال دمشق وكان هذا عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ولقد ضايق دمشق بقصد تملكها وواصل الغارات عليها وعلى أعمالها وقطع الميرة عنها ورعى زرعها ثم جمع الأتراك في جنوب بلاد الشام وتزعم عليهم « وسار الى فلسطين جنوب بلاد الشام وتزعم عليهم وسار الى فلسطين ففتح مدينة الرملة وسار منها الى البيت المقدس وحصره وفيه عساكر المصريين ففتحه ، وملك مايجاورهما من البلاد ما عدا عسقلان». كما استولى على طبرية وحين استولى اتسز على مدينة القدس جعل منها مركزا له وقام بالغاء الدعوة الفاطمية وأحل محلها الدعوة للخليفة العباسي مع السلطان السلجوقي ولقد بعث الى بغداد يخبر بما حققه في الشام. ومن- 149 - أخذ أتسز يغير كل سنة على دمشق فيحاصرها ويرعى زرعها وهكذا ندرت المؤن في دمشق واضطربت فيها الأحوال وأخذ الكثير من أهلها يهجرونها ، ومع ذلك

فقد صمدت وتماسكت ولم تمكنه من رقيبتها الى أن نشب خلاف بين
أهل المدينة وحاكمها الفاطمي مع قواته ، وعندما استحكّم هذا
الخلاف بات أمر سقوط دمشق مسألة وقت لا أكثر (٢١)

لقد غدا الان أتسز «متقدما على جميع الترك والناوكية بالشام
ولقد حرص على الإبقاء على زعامته هذه مهما ارتفع الذم ففني
سنة ٤٦٧ هـ / ١٧٠٤ - ١٠٧٥ م تمكن شكلي بن أوق من
انتزاع مدينة عكا بعد حصار طويل وكان بدر الجمالي قد غادر هذه
المدينة الى مصر وخلف فيها أهله وأكثر أمواله ونخائره فاستولى
شكلي على جميع ماتركه بدر وأسر زوجة بدر مع ابن له وابنة فتزوج
من الابنة وحصن أسوار عكا وقواها وراسل حيدرة بن المعلى بن
منزو الحاكم الفاطمي لدمشق وصاهره على أخته ، (أي أخت ابن
منزو) ، كما اتصل ببعض زعماء قبيلة كلب فتعاهد معهم « وتقوى
بهم واستحلفهم وأخذ رهائنهم وأعطاهم رهائنه » ولقد أزعج كل
هذا أتسز وأغضبه فأرسل اليه « ابعث لي زوجة بدر وابنه ونصف
ما أخذت من المال فامتنع عليه وخاطبه بما لم يكن خاطبه به من قبل»

وقرر أتسز التحرك ضد شكلي ، وفي رمضان من السنة نفسها
(نيسان - ايار ١٠٧٥ م) اشتبك معه «في الساحل فهزّمه ، فجاء
شكلي منهزما الى رفنيه» التي كانت « بلدة عند طرابلس » ولم
يطارده أتسز بل توجه الى دمشق ليحاصرها حسب عادته ومن ثم
عاد الى القدس .

ومن رفنيه - كما يبدو - كتب شكلي «الى ابن لقتلمش التركي
وكان في اطراف الروم يحثه على قصد الشام لينضاف اليه ، وابن
قتلمش هذا كان ابن عم السلطان الب ارسلان، وكان في كتاب شكلي
اليه : انت من السلجوقية وبيت الملك واذا اطعناك وكنا في خدمتك
تشرفنا بك وافتخرنا ، وأتسز ليس من بيت الملك ولا نرضى باتباعه
وطاعته ، وهون عليه امر أتسز والشام ، وقال : وقد جاءتنا من
مصر وعود بالأموال اذا كسرناه وابعدناه عن الشام .

فجاءه ابن قتلмыш فاجتمعا وسارا الى طبرية واطهرا طاعة
صاحب مصر فسار اليهم اتسز من القدس ، وخرجوا اليه
وساعدهم اهلها واقتتلوا فهزمهم اتسز وقتل شكلي وولده صبيرا بين
يديه ، واسر ابن قتلмыш واخاله صغيرا وابن عمه .

ووصل الى اتسز بعد نصره هذا ثلاثة الاف من قوات السلطان
ملك شاه الذي خلف ابيه ارسلان بعد مقتله ، فتقوى بهم وبدأ
يعد العدة لاحتلال دمشق حيث انه غدا الآن سيد جنوبي بلاد الشام
بلا منازع ، وقبل ان يتحرك نحو دمشق ورد الى الشام اخ لابن
قتلмыш «ونزل بأرض سلمية وراسل اتسز في معنى اخيه فقال اتسز
قد راسلت السلطان بسببه ، وانا متوقع الجواب ، فان رسم
انفذته اليه ، وان رسم شيئا آخر كان . ولم يستطع ابن قتلмыш
هذا ان يصنع شيئا فقصده منطقة انطاكية عائدا الى الأراضي
البيزنطية (٢٢) .

وجاء الآن دور دمشق وكانت احوالها قد بلغت حدا لا مثيل له من
السوء والاضطراب والفقر وندرة المؤن ، وكان اميرها الفاطمي قد
«اساء السيرة مع الجند والرعية وظلمهم فكثرت الدعاء عليه وثار به
العسكر ، واعانتهم العامة فهرب منها الى بانياس ثم منها الى
صور ، ثم اخذ الى مصر فحبس بها فمات . وعقب فرار معلى قامت
فئة المصامدة (نسبة الى مصمودة إحدى قبائل البربر التي اعتمد
عليها الفاطميون في جيوشهم) من الجند فعينت مقدمها انتصار بن
يحيى المصمودي المعروف برزين الدولة مكان معلى ، ولم يرض هذا
اهل دمشق وبعض فئات الجند الفاطمي الأخرى ، وقامت الفتن من
جديد واشتدت في دمشق ، ولم يكن اتسز ينتظر احوالا أفضل من
هذه « وكان متوقعا لمثل ذلك ، فنزل عليها في المضايقة لها الى ان
اقتضت الصورة ، وقادت الضرورة الى تسليمها اليه
بالأمان ، وتوثق منه بوكيد الأيمان ، فلما دخلها في ذي القعدة سنة
ثمان وستين وأربعمائة هـ / حزيران ١٠٧٦ م وحصل بها نزل بأهلها

منه قوارع البلاء بعدما عانوه من ابن منزو لعنه لله ، وأشتداد من انزال الجند دورهم واخراجهم منها ، واغتصاب املاكهم والقبض لها ، واستعمال سوء السيرة وخبث الذنية والسريرة ، وتواصلت الدعوات عليه من سائر الناس وعلى اصحابه واتباعه في جميع الأوقات وأعقاب الصلوات والرغبة الى الله تعالى ذكره باهلاكه وتعفية آثاره».

لقد عانت دمشق اثناء حصار ائتسز وزمن حكمه محنا لم تتر ما يماثلها منذ الفتح الاسلامي ، ومرت بفترة من احلك فترات حياتها واصعبها ، ويكفيها هنا أن نسوق ما أورده غرس النعمة محمد بن هلال الصابئي في وصف احوالها ، وهو وصف ربما اعتمد به على تقارير شهود عيان أرسلت اليه الى بغداد ، يقول غرس النعمة: «ولم يبق بها - دمشق - من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلأ ، وكان بها مائتان وأربعون خبازا فصار بها خبازان ، والأسواق خالية ، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها عشرة دنانير فلا يشتريها أحد ، والدكان الذي كان يساوي ألف دينار ما يشتري بدينار ، وكان الضعفاء يأتون الى الدار الجلية ذات الأثمان الثقيلة فيضربون فيها النار فتحترق ويجعلون أخشابها فحما يصطلون به ، واكلت الكلاب والسنانير ، وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم».

وكان لامرأة داران قد أعطيت قديما في كل دار ثلاثمائة دينار أو أربعمائة ، ولما ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفار ، فاحتاجت الى سنور ، فباعت إحدى الدارين بأربعة عشر قيراطا ، واشترت بها سنورا» (٢٣) .

هذه صورة محزنة وقاتمة لدمشق ، وهي بالوقت نفسه معبرة ومفسرة ، إنها تفسر الموقف السلبي الذي أبدته هذه المدينة عند

مجيء الغزاة الصليبيين الى الشام وبعد احتلالهم لبعض اجزائه بفترة طويلة.

لقب اتسز نفسه بالملك المعظم ، واوقف في دمشق الدعوة للفاطميين «وازال الأذان منها بحى على خير العمل ، بعد ان كان يؤذن به على منابر دمشق وسائر الشام مائة وست وستين ، وكان على ابواب الجوامع والمساجد مكتوب لعنة الصحابة رضي الله عنهم فأمر... المؤذنين والخطباء أن يترضوا عن الصحابة أجمعين».

اما وقد أصبح اتسز سيد جميع جنوبي بلاد الشام تقريبا ، فقد اخذ يتطلع ببصره نحو الشمال ، ويقول ابن العديم: «ووصل في سنة ثمان وستين واربعمائة اتسز بن أوق التركي الى اعمال حلب القبلية... وجفل اهل الشام بين يديه ، وكان قد سمي نفسه الملك المعظم ، فنهب كل ما قدر عليه وملك رفنيه ، وسلمها الى اخيه جاولي ، وترددت سراياه في جميع الشام وتمادى فساده» ، وراسل امير حلب اتسز وحاول ارضاءه ببعض المال ، لكنه لم يصل معه الى أي اتفاق ، ورجع اتسز الى دمشق وترك جاولي وراءه في رفنية ، واعتمد جاولي مدة مقامه برفنية اساءة المجاورة وشن الغارات والأذى في الأعمال القبلية من عمل حلب ، وكان ما يزال في حلب قوة من الناوكية بقيادة رجل اسمه أحمد شاه ، ولقد أرسل أحمد شاه ضد جاولي ، واستطاع أحمد شاه مع ناوكيته بعد جهد إيقاع الهزيمة بجاولي وقواته ، فهرب جاولي أولا « الى رفنية ، وسار بعد ذلك الى أخيه بدمشق».

واقطع الآن اتسز عن تطلعاته نحو شمالي بلاد الشام ، لوجود الناوكية هناك ، ثم لما سمعه عن عزم السلطان ملك شاه على اقطاع شمالي بلاد الشام لاجيه تتش ، واخذ اتسز يتطلع نحو ملك جديد ، ولم يكن ذلك أقل من مصر كلها (٢٤) .

كان سيد مصر الفعلي في هذه الأونة بدر الجمالي ، وكان بدر يعمل على تقوية حكمه وتوطيد مركزه ، وقد سبب هذا لبعض رجالات السلطة الذين كانوا في الحكم في مصر قبل استلام بدر مع عدد من الجند العمل على الهرب من مصر والالتجاء الى الشام الى اتسز ، ويقول المقرئزي عن هذا الأمر: « وكثر عسكره - اي اتسز - بمن فر اليه من مصر خوفا من أمير الجيوش بدر الجمالي ، وحدثته نفسه بأخذ مصر » وكان من جملة من فر اليه ابن يلدكوز كبير قادة الجيش الفاطمي في القاهرة قبل بدر الجمالي ، فأغراه بأخذ مصر ، وأطمعه في أهلها ، فدشده ، وهم على حين غفلة » ، « وبرز من دمشق ونهض في جمع عظيم الى ناحية الساحل ، ثم منها الى ناحية مصر ، طامعا في ملكتها ، ومجتهدا في الاستيلاء عليها ، والدعاء عليه من أهل دمشق متواصل واللعن له متتابع متصل » .

وبلغ اتسز أطراف مصر في أوائل ربيع الأول لسنة ٤٦٩ هـ / تشرين أول سنة ١٠٧٦ م ، وكان معه حسب رواية غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء عشرين ألفا « من التركمان والأكراد والعرب » ، ووصل الى ريف مصر ، وكان بدر الجمالي وقتئذ غائبا عن القاهرة مشغولا بأخضاع القبائل العربية في الصعيد ، ولم يتوجه اتسز الى القاهرة لأخذها بل « أقام - في الريف - نيفا وخمسين يوما يجمع الأموال ويسبي الحريم ويذبح الأطفال ، وهو يرأسل بدر الجمالي ، ويطلب المال... فضمن له بدر مائة وخمسين ألف دينار ، وأستدعى من كان بالصعيد من العساکر والسودان ، وكان مع اتسز بدر بن حازم الكلبى في الفسي فارس ، فاستماله بدر ، فانتقل الى القاهرة ثلاثة الاف رجل في المراكب لنية الحج ، فقال لهم بدر: دفع هذا العدو أفضل من الحج وأعطاهم المال والسلاح » .

وعندما توجه اتسز نحو القاهرة لأخذها ، كانت هذه المدينة قد

امتلات بالمقاتلة من جند الخلافة وممن جلا اليها من الريف وجاءها من المتطوعة ، «وخرج - بدر - من القاهرة في ثلاثين الف مابين فارس وراجل في يوم الخميس لثلاث عشرة بقيت من رجب (١٥ شباط ١٠٧٧ م) وسير المراكب بالميرة» ، «فخافه اتسز وعزم على العود عن مصر الى الشام ، فلم يوافق أصحابه على ذلك ، وقالوا له: قد ولئت ديارهم وتعود بغير فائدة ، فلم يلتفت الى قولهم ، فقال له اخوه المأمون وابن يلدكوز: لا تغرنك كثرتهم ، فانما هم سوقه وصيحة واحدة تهزمهم ، فلا ترجع عن هذا الملك الذي أشرفت على اخذه» ، ووافق اتسز مكرها ، واشتكت بقوات بدر ، ودارت معركة حلت فيها الهزيمة به وبقاته ، ذلك ان قوات بدر الجمالي هاجمته من امامه وأغارت قوات بدر بن حازم الكلبية من ورائه ، على معسكره وضربت « النار في الخيم والخركاوات فانهم اتسز وقتل من كان حوله ، وانهم تركمان ، «وتبعهم السودان والعرب أسرا وقتلا الى الرملة ، وغنموا منهم غنائم لم يغنمها أحد قبل ذلك ، وكان فيما أخذ ثلاثة الاف حصان ، وعشرة الاف صبي وجارية ، وأما من الأموال والثياب فما لا يحصى» .

ومضى اتسز مهزوما» في نفر يسير ، فلما وصل غزة ثار أهلها به فقتلوا جماعة ممن كان معه ، فهرب الى الرملة ، فخرج اليه أهلها فقاتلوه وقتلوا بعض من كان معه ، فهرب الى دمشق في بضع عشرة نفسا ، فخرج اليه ولده ومسمار أحد أمراء الكلبيين ، وكان قد استخلفهما بدمشق في مائتي فارس من العرب... وخرج اليه أهل البلد فخدموه وهنوه بالسلامة» .

وحدثه أهل دمشق وشكوا اليه أوضاع بلدهم وقال له أحدهم: «قد عرفت أنه لم يبق في هذا البلد عشر العشر من الجوع والفاقة والفقر والضعف ولم يبق لنا قوة» ، فوعد أهالي البلد خيرا «ثم أقام بدمشق وجاء التركمان من الروم ولم يستخدم غيرهم ، وعصى عليه الشام ، وأعادوا خطبة صاحب مصر في جميع الشام ، وقام بذلك المصامدة

والسودان ، وكان اتسز وأصحابه قد تركوا أموالهم وأولادهم بالقدس ، فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على أموالهم ونسائهم فنهبوها ، وقسموا التركيات بينهم ، واستعبدوا الأحرار من الأولاد واسترقوهم ، فخرج من دمشق فيمن ضوى اليه من التركمان ووصل الى قريب القدس ، وراسلهم وبذل لهم الأمان فأجابوه بالقبيح وتوعده بالقتال فجاء بنفسه الى تحت السور وخاطبهم فسبوه ، فقاتلهم يوما وليلة وكان ماله وحرمه في برج داود ، ورام السودان والمصامدة الوصول اليهم فلم يقدرُوا وكان في البرج رتق الى ظاهر البلد فخرج اهله منه اليه ودلوه عليه ، فدخل منه ومعه جماعة من العساكر وخرجوا من المحراب ، وفتحوا الباب ودخل العسكر فقتلوا ثلاثة الاف انسان ، واحتفى قوم بالصخرة والجامع ، فقرر عليهم الأموال حيث لم يقتلهم لأجل المكان واخذ من الأموال شيئا لا يبلغه الحصر بحيث بيعت الفضة بدمشق كل خمسين درهما بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهما بدينار وقتل القاضي والشهود صبورا بين يديه وقررامور البلد وسار الى الرملة فلم ير فيها احدا ، فجاء الى غزة فقتل كل من فيها فلم يدع بها عيناً تطرف ، وجاء الى يافا فحصرها ثم دخلها وهدم اسوارها ثم اخذ عائدا الى دمشق ، وكتب الى بغداد «بانه على نية العود الى مصر وانه يجمع العساكر » .

ولم يهمله بدر الجمالي هذه المرة حتى يعد العدة لحملة جديدة ضد القاهرة بل أخذ بزمام المبادرة فأعد جيشا سيره في سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م نحو الشام بقيادة نضر الدولة (يرد اسمه احيانا ناصر الدولة و احيانا نصير الدولة) الجيوشي ووصلت القوات الفاطمية دمشق فاخذت بحصارها ومضايقتها واستولى الجيش الفاطمي على اعمال دمشق واعمال فلسطين واقام على دمشق «مدة مضايقا لها وطامعا في تملكها ، واضر على منازلها اضرارا اضطر اتسز صاحبها الى مراسلة تاج الدولة) تتش بن الب ارسلان وكان منازلها لحلب يجهد لاخذها) يستنجد ويستصرخ به ، ويعدده بتسليم دمشق

اليه ويكون في الخدمة بين يديه ، فتوجه نحوه في عسكره ، فلما عرف نصر الدولة الخبر وصح عنده قرابة منه رحل عنها مجفلا وقصد ناحية الساحل وكان ثغرا صور وطرابلس في ايدي قضاتهما قد تغلبا عليهما ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش (بدر الجمالي) بل يصانعان الأتراك بالهدايا والملاطفات ووصل السلطان تاج الدولة الى عذراء في عسكره لانجاد دمشق ، فدخلها واقام بها مديدة «وقرر تدش ان يتخلص من أتسز وينفرد بحكم دمشق» فقبض عليه في شهر ربيع الأول منها (ايلول – تشرين اول ١٠٧٨) وقتل اخاه اولاً ، ثم امر بخنقه فخنق بوتر في المكان المعتقل فيه ، وملك تاج الدولة دمشق واستقام له الأمر فيها .



عندما قام تتش بهذا طوى صفحة حالكة من تاريخ دمشق وجنوب بلاد الشام وذلك بقتله لاتسز مع أخيه وكان اتسز وثلاثة من إخوانه الأربعة قد قتلوا ، فهو - أي اتسز - قتل شكلي ، وفي حملته على مصر فقد واحدا من إخوانه ، وجاء تتش الآن فأجهز على الثالث . لقد كره أهل دمشق اتسز هذا كثيرا ولعنوه في كتاباتهم ، وسموه إقسيس ومع ذلك فإن ابن كثير وهو من متأخري مؤرخي دمشق فقد اعتبره بأنه « كان من خيار الملوك وأجودهم سيرة وأصحابهم سريرة . أزال الرفض عن أهل الشام ، وأبطل الأذان بحي على خير العمل وأمر بالترضي عن الصحابة أجمعين ، وعمر بدمشق القلعة التي هي معقل الاسلام بالشام المحروس فرحمه الله ، وبطل بالرحمة ثراه ، وجعل جنة الفردوس مأواه » . ما أظن أن الله تعالى سيستجيب لدعاء ابن كثير هذا الذي سر لتغيير جملة في صيغة الأذان ، ولم يتأثر أو يتألم لآلاف الأرواح التي أهدرت ، ثم للتهديم الذي أصاب الناس والأرض ، ولا لأجيال من الآلام والخزي تحت الحكم الصليبي ، وهو ابن كثير نفسه حين تحدث بشكل مفصل عن بناء قلعة دمشق قال ناقضا ما ذكره من قبل بأن اتسز : « شرع في بناء هذا الحصن المنيع » ، ثم بين بأن مكان القلعة كان أحد ابواب دمشق وكان يعرف بباب الحديد ، ومعروف أن البوابات كانت عادة عبارة عن أبراج تتفاوت في القوة والحجم ، ويبدو أن كل ما فعله اتسز أنه رم سور دمشق للدفاع عن نفسه ومتن برج بوابة باب الحديد أكثر من سواه ، وبقي الحال هكذا حتى ملك تتش دمشق فأكمل بناء القلعة « واحسن عمارتها » كما قال ابن كثير نفسه (٢٥) .

أما وقد رأينا ما حل بدمشق وجنوبي بلاد الشام ، فلنعد نحو الشمال حتى نشهد بقية المأساة ونستوفي القصة ، ونسدل الستار على الشام كبلد فيه للبدو العرب دور سياسي مؤثر .

قبل أن يتوفى محمود بن نصر أمير حلب ، أوصى بالامارة من بعده لولده الأصغر شبيب ، ولكن بعد وفاته لم تراع وصيته هذه ، وعين رجال الدولة مع عساكرها ابنه الكبير نصر (٢٦) وكانت غالبية هذه العساكر مؤلفة من التركمان الذين كانوا يعيشون في حلب ، ولقد

كان مقدم هؤلاء التركمان يعرف باسم أحمد شاه ، هذا ويروي ابن العديم ما يفيد بأن أحمد شاه كان مخلصا في خدمته لنصر بن محمود (٢٧) ففي سنة ١٠٧٥ م أرسل نصر بن محمود أحمد شاه مع تركمانه لاسترداد بلدة منبج من البيزنطيين الذين كانوا قد احتلوها منذ أيام الامبراطور رومانوس دايجينوس كما سبق ومر معنا من قبل .

وفي الحادي والعشرين (او ٢٤) من ايلول سنة ١٠٧٥ م سلمت الحامية البيزنطية في منبج حصن البلدة للجيش الحلبي وذلك بعد حصار دام فترة طويلة من الزمن ، وبعد هذا بفترة وجيزة تعرضت الأجزاء الجنوبية من إمارة حلب - كما سبق وذكرنا - لغارات قام بها أتسز مع أخيه جاولي ، ولقد بينا كيف أن نصر بن محمود لما أخفق في كف عادية أتسز وجاولي بالمال والهدايا أرسل أحمد شاه مع تركمانه فتصدوا لأتسز وجاولي واشتبكوا معهما في أكثر من معركة ، ولقد هزم أحمد شاه في الأول ، وعول أتباعه على العودة إلى حلب لكنه أبى إلا أن يعاود القتال وقال لأتباعه : « ما بقى لنا وجه إلى حلب بعد هذه الكسرة ، فإن راجعتم الحرب وأظفرنا الله بهم كان الأمر لنا بحكم الظفر ، وإن أبيتم ذلك فأنا أسير إلى الفرات ، وأستدعي أهلي - حتى أقاتل بهم - فما لي وجه القى به نصر بن محمود ، وإنما أعطى ومنح وأكرم لمثل هذا الموقف .

فاجمعوا أمرهم على معاودة الحرب فأسرى من موضعه إلى عسكر جاولي ، وكبسه ، فاستثار منهم ، ونهب عسكره ، وأسر منهم ما يزيد على ثلاثمائة نفس ، وسيرهم في الوثاق إلى حلب مشاة ، وهرب جاولي» (٢٩) .

ولأسباب غير معروفة قبض نصر بن محمود « على أحمد شاه واعتقله بقلعة حلب في عيد الفطر من سنة ثمان وستين وأربعمائة » (٩ أيار ١٠٧٦ م) ، ويبدو أن أحمد شاه جاء ثاني يوم العيد لتهنئة نصر ، وصعد إلى القلعة لوحده ، فانتهر نصر الفرصة فألقى القبض عليه ، وبعد أن فعل ذلك « جلس فشرب إلى العصر ، وحمله الاسكر على الخروج إلى الأتراك ، وسكناهم في

الحاضر ، وأراد أن ينهبهم ، وحمل عليهم ، فرماه تركي بسهم في حلقه فقتله . لقد كان الحاضر يقع خارج أسوار حلب ، وكان نصر أهوجا ، وعندما زحف على الحاضر كان لوحده وقد سمع وهو يصرخ « نريد الوجوه الملاح » ، ويبدو أن التركمان كانوا مستنفرين ومتوقعين الشر بعد أن سمعوا بإلقاء القبض على مقدمهم ، وزحف التركمان بعد مقتل نصر « إلى البلد يطلبون أحمد شاه » ولقد أزعج خبر مقتل نصر أهالي حلب الذين كانوا يحتفلون بعيدهم وكانوا قد تجملوا بأفخر ملابسهم « وكان الزمان ربيعا والأرض نضرة » ، فتدفق الناس نحو حلب وتدفق من كان داخل المدينة إلى بيوتهم ، وما إن سمع من كان في المدينة من رجال الإمارة بمقتل نصر حتى أسرعوا فأغلقوا أبواب حلب وعملوا على تدارك الأمور (٣٠) .

كان نصر بعدما أصبح أميرا على حلب قد أوكل معظم شؤون دولته إلى عمه في الرضاة علي بن المقلد بن منقذ الذي كان يعرف باسم سديد الملك وإلى وزيره أبي نصر محمد بن الحسن التميمي المعروف بابن النحاس الحلبي ، وكانت العلاقة بين ابن النحاس وسديد الملك علاقة جيدة ، قد متنها حبهما للأدب ، وما أن علم ابن النحاس وسديد الملك بمقتل نصر حتى تصرفا بسرعة « فاستدعوا أخاه سابق بن محمود » وكان سابق ساكنا في المدينة وكان أيضا قد أمضى نهاره يحتسي الخمرة لذلك عندما جلب ليتسلم منصبه الجديد في القلعة لم يدخلوه من بابها بل « رفع إلى القلعة بحبل من السور وهو سكران ونادوا بشعاره وأطاعته الأجناد ، وأشاروا عليه بإطلاق أحمد شاه فأطلقه في الحال ، وخلق عليه»

ونزل أحمد شاه إلى العسكر بالحاضر ، فسكن الثائرة ، وأخذ الفتنة ، فكان سابق بن محمود بعد ذلك يعين الأتراك ويقربهم ، ويحسن إليهم، ويقدمهم على أهله بني كلاب ، وينصرهم عليهم (٣١) ولقد أصبح أحمد شاه الآن سيد إمارة حلب الفعلي وأخذ يمارس سلطانه « وفي كفالته سابق بن محمود بن نصر » وكان سابق من متخلفي بني مرداس ، ولما « عرف بنو كلاب تخلفه ، اجتمعوا إلى

أخيه وثاب وحسنوا إليه أخذ حلب ، وانضاف إليه أخوه شبيب بن محمود ، ومبارك بن شبل ابن خالهما « ، وعندما رأى علي بن مقلد ابن منقذ تدهور الأوضاع في مدينة حلب بتحكم أحمد شاه بسابق ، وبقرار قبيلة كلاب مهاجمة حلب لخلع سابق ، عندما رأى كل هذا هجر حلب إلى بلدة كفر طاب حيث أخذ يخطط للاستيلاء على شيزر ومن ثم إقامة حكم الأسرة المنقنية في هذه القلعة .

وجمعت قبيلة كلاب كل رجالها ، فاجتمعوا « في جمع عظيم ما اجتمعوا قط في مثله ، يقال إنهم كانوا يقاربون سبعين ألف فارس وراجل » .

وعسكرت هذه الجموع في منطقة قدسرين تعد أنفوسها للزخف على حلب ، وفي داخل حلب « لما تحقق سابق ذلك استدعى أحمد شاه أمير الأتراك ، وكانوا ألف فارس وشاوره » . وأخذ أحمد شاه يعمل لصد قبيلة كلاب وتفريق جموعها .

ويستنتج من قصيدة القاسم ابن حيوس أثناء هذه المحنة أن الناس كانوا يخشون عواقب تحرك قبيلة كلاب ، وأنه قد وجد ضغط على سابق كي يحاول تجنب الاصطدام مع اله لأن في ذلك تهديم لقوة العرب ومجد آل مرداس ، ويقول ابن حيوس :

بني عامر لاتمتطوا البغي ضله
فلم يعله المغرور إلا ليسفلا
ولاتتبعوا الأهواء فهي مضلة
وإن سوف الشيطان فيها وسولا
ولاتتقفوا من جار عن منهج الهدى
فأدمى يدا من حقها أن تقبلا
وكونوا كأشياخ لكم غالها الردى
ترى الموت من نقض المواثيق أسهلا
ففي آل ذبيان وأبناء وائل
مواعظ لاتخفى على من تأملا

اعلوا صحيح الراي واتبعوا الهوى
فأيتم منهم كيف شاء وأرملا
وقد حدثت في الارض والأمر واضح
نوائب تنهاكم عن الهجر والقتلا

☆☆☆

فلا ترض يا عز الملوك بذلهم
وان يردوا من غير بحرك منها
وصنواك لا تعص ابن عمك منهما
وكن غير مأمور إلى السلم اميلا
فما رضيا بالبعد عنك زهادة
ولا ابتغيا ما عز إلا تذلا
وهل طلبا الانصاف من غير أهله
وهل أوعرا في السوم إلا ليسهلا

لم يكن سابق الذي كان بلا حول ولا طول ليقدر على المبادرة للعمل على إحلال السلم مع قومه ، لقد كان أحمد شاه هو الذي يستطيع إنهاء المشكلة ، وهكذا عمل حيث أنفذ « إلى رجل من الأتراك يعرف بمحمد بن دملاج كان نازلا في طريق بلد الروم في خمسمائة فارس ، وضمن له مالا كثيرا ، فوصله محمد بن دملاج في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة من سنة ثمان وستين (٧ حزيران ١٠٧٦ م) ، وتحالفوا ، وخرجوا إلى بني كلاب المجتمعين مع وثاب في غداة يوم الخميس مستهل ذي الحجة من سنة ثمان وستين وأربعمائة (٧ تموز ١٠٧٦ م) . »

وكان بنو كلاب غارين واثقين بعهدهم لذلك أخذوا بالدفاعة « فعند معاينتهم الأتراك انهزموا من غير قتال وخالفوا حالهم وكل ما كانوا يملكونه وأهاليهم وأولادهم ، فغنم أحمد شاه وأصحابه ومحمد بن دملاج وأصحابه كما كان لبني كلاب ، فيقال

أنهم أخذوا لهم مائة ألف جمل وأربعمائة ألف شاة ، وسبوا من حرمهم الحرائر جماعة كثيرة ، ومن إمائهم أكثر ، وكلما كان في بيوتهم ، وعفوا عن قتل عبيدهم المقاتلة ، وكانوا يزيدون على عشرة آلاف عبد مقاتل ، ولم يقتلوا أحدا منهم ، وكان الذي غنمه الغز من العرب في ذلك اليوم مالا يحصى كثرة « (٣٢) .

بعد ثلاثة عشر يوما من هذا النصر المؤزر قامت فرصة جديدة أمام سابق لتدارك بعض ما حدث وللتخلص من التركمان « فبعد انهزام العرب بثلاثة عشر يوما دعا محمد بن دملج التركي أحمد شاه ، فخرج إليه ، وكان نازلا شمالي حلب ، فلما أكلوا وشربوا قبض محمد بن دملج على أحمد شاه وأسره ، وكان في نفر قليل ، فأقام في أسره تسعة أيام ، وعوضا عن أن ينتهز سابق فرصته هذه فيشير أتباع أحمد شاه ويحثهم على تخليص سيدهم ، وهكذا يوقع الحرب بين فئتي التركمان فتضعفا فيمكن الخلاص منهما بسهولة ، عوضا عن القيام بمثل هذا ، أثر سابق أن يبقى محكوما من قبل أحمد شاه ، لذلك سعى لتحرير سيده وفك أسره ، « فاشترى أحمد شاه من محمد بن دملج بعشرة آلاف دينار وعشرين فرسا « (٣٣) .

وترك وثاب بن محمود مع بقية المهزومين من أمراء بني كلاب منطقة حلب ، وتوجهوا شرقا إلى خراسان « إلى السلطان ملك شاه ابن ألب أرسلان وشكوا حالهم ، وسألوا منه أن يعينهم على سابق ، فوعدهم وأقطعهم في الشام ، وأقطع الشام أخاه تدش ، فسارومعه جموع الترك ووثاب ومبارك بن شبل ، وكان تحرك تدش غربا « إلى الشام في أوائل سنة سبعين وأربعمائة (١٠٧٧ م) ، وتقدم السلطان ملك شاه إلى أفشين بن بكجي ، وصندوق التركي ، ومحمد بن دملج ، وابن طوطو ، وابن بريق ، وغيرهم من أمراء الترك بالكون مع تاج الدولة - تدش - والمسير في خدمته « ، وعندما وصل تدش إلى ديار بكر التقت به قبيلة كلاب فالتحقت به وسلمته قيادها ليسير بها إلى قتال حلب لاسقاط الدولة المرديسية الكلابية وإحلال حكمه التركماني محلها ! والأحمق دائما يفعل كل

منكر ويسعى إلى حتفه بظلمه ويجني ثمرات حمقه ، ويقتل لصالح
عدوه وفائدته ، وليس أبلغ من أن نسوق هنا كتعليق قوله تعالى:
« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة
الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (الكهف
١٨ / ١٠٣ - ١٠٤) .

وعندما وصل تتش إلى حلب وصل إليه والتحق به « شرف الدولة
أبو المكارم مسلم بن قريش في عسكر كثير بأمر ملك شاه ونزل معه
على حلب معينا له (٣٤) وقبل أن تصل هذه القوات كلها إلى حلب كان
سابق قد أخذ احتياطاته ، فقد كان أحمد شاه خارج حلب يحاصر
أنطاكية ، فاستدعاه وطلب منه ترك أنطاكية التي تعاني من شدة
تضييقه الحصار عليها ، ومن الطريف ذكره أن أحمد شاه لم يترك
حصار أنطاكية إلا بعد أن قبض من أهلها مبلغ ٥٠٠٠ ر ٥ دينار .
(٣٥) .

وما أن وصل تتش مع قواته أسوار حلب حتى بدأ يحاصرها ،
وبعد بدء الحصار بأيام قام تتش برفعه وانسحب مسافة عدة أميال
عن أسوار المدينة ، ومن المحتمل أن هذا الانسحاب قد تم لغاية
عسكرية هدفت إما إلى استدراج المدافعين للخروج من المدينة
للإيقاع بهم ، أو أن تتش هدف إلى إعادة تنظيم قواته لتقوم بحصار
حلب لفترة طويلة حتى تسقط ، المهم أن تتش عاد إلى أسوار حلب
وعاود حصار المدينة ، ولقد استمر محاصرا إياها مدة ثلاثة أشهر ،
وعلى كل حال لم يكن هذا الحصار قاسيا ، فقد « كان هوى شرف
الدولة ابي المكارم مع سابق ، وكان يسير إليه في الباطن بما يقوي
نفسه ، وكان ينكر على بني كلاب خلطتهم بعسكر الترك » ، وعمل
مسلم على أن تتخلى قبيلة كلاب عن تتش فترحل نحو البادية أو
يدخل رجالها مدينة حلب للمساعدة في الدفاع عنها ، ولقد سهل مهمته
هذه أحمد شاه حيث أصيب بضرحة أثناء الحصار أودت بحياته ،
وراسل سابق بني كلاب « فتالفهم ، وقال لهم : اني انما اذنب
واحامي عن بلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد الى تتش لزال ملك
العرب وذلوا » .

واثمرت جهود مسلم بن قريش فتخلت قبيلة كلاب عن تدش بسان
رحل القسم الاكبر منها نحو البادية ، وبخل قسم منها مدينة حلب ،
وهنا اخبر مسلم تدش بانه سيرحل هو ايضا عائدا نحو الموصل ، «
ورحل وجعل عبور عسكره على باب حلب (ربما باب العراق) وباع
اصحابه اسل حلب كل ماكان في العسكر عصبية وتقوية لهم ، وقوى
نفوسهم وفسس سابق ، وسار بعد ان قوي اهل حلب بما ابتاعوه من
عسكره بعد الضعف الشديد الى بلاده » (٣٦) .

وتابع تدش بعد انسحاب قبيلة كلاب ومسلم بن قريش وتخليهم عنه .
حصاره لمدينة حلب ، ويبدو انه كان متوقعا لمثل هذا الانسحاب ،
لذلك حاول مسبقا تفادي مخاطره فراسل اخاه ملك شاه وطلب منه
المساعدة بالعاكر وبشكل خاص طالب بامداده بالات للحصار وبك
الاسوار ؛ ولقد التقى مسلم بن قريش ، وهو في طريقه الى الموصل ،
عند سنجار بقوة غزية مؤلفة من الف من الجند يقودها رجل اسمه
تركمان ، وكانت وجهة هذه القوة مدينة حلب ، وكانت تحمل معها
ادوات الحصار التي طلبها تدش من اخيه ملك شاه ، وحاول مسلم
ان يقنع تركمان بعدم متابعة سيره الى حلب لكنه اخفق ، وعندها
انذر سابق وساعده على تشكيل قوة عربية بدوية من مختلف القبائل
فيها حوالي الف فارس وخمسمائة راجل ، وكنمت هذه القوة العربية
للعساكر الغز فهزمتهم وقتلت اكثرهم . ولقد كان الشاعر ابن
حيوس يعيش هذه الأحداث ويتفاعل بصديق معها ومما قاله حول
هذه الحادثة :

وكانت الترك بالأعراب جاهلة
حتى أتحت لها أن تعرف العربا

ولم يفت منهم الا اغيلمة
نجت بهم مقربات تحمل الأربا

لولا كلاب لما جاشت جيوشهم
هذي البلاد ولا مدوا بها طنبا

راموا المودات من اعدى عداتهم وذاك رأي الى غير الصواب صبا

وعندما وصلت أخبار ما حل بالغز الى تتش ترك أسوار حلب وقاد معظم ما كان لديه من قوات ضد البدو العرب الذين كانوا في ريف حلب ، وما أن بعد عن حلب حتى خرجت القوات التي كانت موجودة داخل المدينة فهاجمت معسكراته فقتلت حرسها واغتذمت ما كان فيها ، ويبدو أن تتش لم يحقق اي نجاح في مطاردته للبدو العرب وعندما سمع بنهب معسكره قرر عبور الفرات ليغير على ديار مسلم بن قريش وينتقم منه ، لكنه بعدما عبر الفرات علم بأن مسلم يتوقعه وهو متأهب للقاءه والتصدي له ، لذا اضطر مكرها للتخلي عن خطته ، وذهب الى ديار بكر حيث أمضى الشتاء « (٣٧) » .

ومع رحيل الشتاء واقبال الربيع رحل تتش من ديار بكر مع قوات جديدة من التركمان كان قد جندها ، واقتبل على رأس هذه القوات نحو حلب يريد أخذها وقد خطط لذلك خطة جديدة ، فلقد هدف الى تجريد حلب من جميع المواقع الحصينة التي كانت تابعة لها ، ومن ثم ينقض على حلب نفسها فيأخذها ، وفي هذا السبيل احتل منبج وحصن الفايا ، وفتح حصن بزاعا « بالسيف وقتل كافة من كان فيه ونهبه ، وشحنه بالرجال ، ورحل الى عزاز وقد انضوى الى قلعتها خلق عظيم ، ومنعمهم الوالي بها من الصعود اليها ، فالتجنوا الى سند القلعة بأقمشتهم والناس عليها... فزحف العسكر الى القلعة ، وقاتلها ، وضربها بالنار ، فاحتزقت أقمشة الناس وغلاتهم وحرمتهم واولادهم « ، ورحل تتش بعد هذا نحو حلب فوصلت قواته صباحا ، وقبل أن تستعد هذه القوات وتنظم صفوفها لمهاجمة المدينة انقضت عليها عساكر حلب ففاجأتها « وهزم الله عسكر تتش ... ولو عاد عسكر حلب في إثرهم ما كان أقلت منهم إلا من سبق به فرسه» .

ولم يحاول تتش - على الأقل لبعض من الوقت - أن يهاجم مدينة حلب بل توجه جنوبا الى دمشق - كما سلف الحديث - فتسلمها وأسس لنفسه حكما فيها (٣٨)

الآن وقد مر بنا عدة مشاهد من فصول الصراع من أجل السيادة على بلاد الشام والجزيرة لابد للمرء من أن يتساءل عن طبيعة هذا الصراع وبواعثه ومحركاته؟.

انه لمن الواضح مما جاء في روايات المؤرخين الذين كتبوا حول هذا الصراع وبنوا أحداثه، ومما جاء في شعر الشعراء العرب المعاصرين للأحداث بأن المحرك الذي كان وراء مسلم في هواء مع المرادسين وفي أعماله لمساعدتهم ضد السلاجقة والتركمان ، هو رابطة العصبية القبلية، ولقد واجهنا في روايات المؤرخين وشعر الشعراء مجموعتين من الناس تتصارعان من أجل السيطرة والسيادة ، ولقد مر معنا بأن « ملك العرب » كان يحتاج أن يحمى ويصان قبل أن يزال من قبل التركمان الأجانب .

وروى ابن العديم بأنه عندما كان تتش يحاصر مدينة حلب كتب سابق بن محمود - كما مر معنا - الى أخويه شبيب ووثاب وبقية امراء ومقدمي قبيلة كلاب قائلاً : « إني انما انب واحامي عن بلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد الى تتش لزال ملك العرب وذلوا»، ولقد تردبت نغمة هذه الرسالة في شعر ابن حيوس وفي رسالة نظمها ابو نصر بن النحاس على لسان سابق وتم ارسالها الى محمد بن زائدة الذي كان أحد البارزين بين امراء قبيلة كلاب ، ومما جاء في هذه الرسالة :

وقل لكلاب بدد الله شملكم
أو يحكم ما تتقون المعاييا
اتستبدلون الذل بالعز ملبسا
وتمسون اذنايا وكنتم ذوانبا
وها انا لانفك ابذل في حمى
حماكم مجدا مهجتي والرعائبا

ويروي سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان بأن سابق بن محمود قد كتب في سنة ١٠٧٩ م الى مسلم بن قريش يستغيث به ضد تتش

الذي بعد أن استقامت أمور دمشق له « حشد لي قصد حلب » ، ومما جاء في رسالة سابق قوله : « أنت أولى بي من الغير والعربية تجمعنا فإن كنت مأكولا فكن أنت أكلي » ، وسبط ابن الجوزي نفسه ينقل في كتابه مرآة الزمان عن غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ بأن مسلم بن قريش جاء إلى حلب في سنة ١٠٨٠ م وحاول احتلالها (كما مر معنا) ولقد تمكن من أخذ المدينة وحاصر سابق بن محمود وأخوانه في القلعة ، وطال أمر القلعة وكان في صحبة مسلم مقدمي قبيلة كلاب ، لذلك لما امتد أمر حصار القلعة جمعهم مسام اليه وخاطبهم: « قد علمتم أنني أنفقت أموالي وبعدت عن بلادي في حراسة بلادكم وأموالكم ، وكف عادية الغز عنكم ، وهذه مقابلة ما أعرفها فإن كنتم رجعتم فيها أنا راجع إلى بلادي ومتبرئ منكم ، فأذكروا ما جرى وشرطوا السعي فيه وإزالة ما تجدد منه» .

إن كلمة « عرب » التي ورد ذكرها في المصادر كانت تشير فقط إلى القبائل البدوية العربية لبلاد الشام والجزيرة وليس إلى جميع سكان هذين البلدين ، وبذفس الوقت أشارت كلمة « ترك » واستخدمت للتدليل على التركمان اللذين رافقوا الفتح السلجوقي لبلدان العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر . م ولقد مر معنا بأن بلاد الشام والجزيرة كانت تحكم قبل مجيء التركمان من قبل أسر بدوية عربية من عقيل ونمير وقشير وكلاب مع وجود طيء وكلب وسواهما في جنوبي بلاد الشام ، وبعد سنين من الصراع سنجد التركمان يتمكنون أخيرا من تجريد هذه الأسر من سلطانها وقبائل هذه الأسر من أراضيها وممتلكاتها .

واعتمادا على هذا يمكننا القول بأن الصراع كان صراعا من أجل السلطة والسيطرة بين قوتين بدويتين مسلمتين واحدة عربية تدين بالتشيع وأخرى تدين بالسنة وهي وافدة تريد أن تحل نفسها محل الأولى .

لقد كان البدو يمثلون قسما صغيرا من سكان بلاد الشام والجزيرة وكانت الغالبية تقطن في المدن والأرياف ، ولا بد للباحث الحديث أن يتساءل عن موقف هذه الغالبية من الصراع ومن

المؤسف أن المؤرخ العربي لم يول هذه الغالبية اهتمامه ولم يعرها انتباهه ، وهو حين تحدث عن البدو العرب تحدث عنهم كأصحاب سلطة ، وبمفسر الوقت حين تحدث عن التركمان تحدث عنهم كجماعة كانوا يستولون على السلطة وكانوا يقيمون لأنفسهم دولا جديدة ، ولقد تعود الانسان العادي أن يحكم وأن يعاني دون أن يشارك في مصيره ، ومع ذلك يمكن القول بأن غالبية سكان الشام والجزيرة قد وقفت ضد التركمان وكرهتهم لأسباب دينية ، ولما حققوها بها من المصائب والويلات .

ولا بد لنا من أن نذكر هنا بأنه قد ورد في مصادرنا بعض ما يشرح موقف تنظيمات الأحداث ، وخاصة في حلب ، من الصراع بين البدو العرب والبدو التركمان ، ولقد كان الأحداث دائما ضد التركمان ، لكن ينبغي أن نعرف بأن الأحداث لم يكونوا يمثلون جميع سكان المدن والأرياف في الشام وإنما بعضا منهم ، وأنهم وقفوا ضد التركمان لا للدفاع عن الناس العاديين وإنما على الأغلب للدفاع عن مصالحهم ومكانتهم وسلطاتهم التي هددها مجيء التركمان بالزوال (٣٩) .

إذا كان الخطر الذي واجهته القبائل العربية جعلها أحيانا تقف ضد التركمان كي تحافظ على ملكها وأملاكها ، لكن لماذا قاتل ابن خان التركماني وأتباعه ثم أحمد شاه وأتباعه ضد بني جنسهم ولماذا ساندوا الدولة المرداسية وسواها ضد الخطر الغزي والغزوي السلجوقي ؟ يكمن الجواب على هذا في طبيعة الجماعة التي انتسب إليها ابن خان وأحمد شاه ، وهي جماعة النواكية التي قلنا عنها بأنها لم تكن للسلطان السلجوقي بالطاعة ، لذلك خدمت في ظل الدول التي كانت موجودة في الشام والجزيرة .

وعلى الرغم من النواكية قد ناصبوا السلاجقة العدا فلم يعترفوا بسلطانهم ، إنهم قد خدموا قضية السلاجقة ومهدوا السبيل نحو استيلائهم على بلاد الشام . ومنذ مجيء السلطان الب أرسلان إلى بلاد الشام وخوضه معركة مناظر كرد ، دخل الشام والجزيرة

جماعات جديدة من التركمان دانت له ولخلفائه بالطاعة ، لذا فانها اختلفت عن الناوكية اختلافا جوهريا فهي طالما كانت تدين بالطاعة للسلطان فانها لم تكن بحاجة للانضواء تحت لواء أية حكومة من حكومات الشام والجزيرة أو للعمل كمرتزقة لديها ، لقد دخلت هذه الجماعات الشام دخول الغزاة وتضرفت وتصرفت الفاتحين ، وقالت بانها كانت مرسلة من قبل السلطان ومفوضه من قبله ومنفذه لأوامره ، ولقد كانت طرائق هذه الجماعات في الفتح تعتمد على التخريب والتهديم والتحريق والقتل وتبغى السلب والنهب دونما تأثير بالآلام التي تلحق بالناس ، لأنها كانت بلا ضوابط وبلا اعتبارات انسانية أو خلقية ، وذلك بسبب طبيعتها البدوية وبسبب المرحلة الحضارية ودرجة الثقافة التي كانت فيها ، وينبغي أن يضاف الى هذا كله ان هؤلاء التركمان كانوا ، بسبب تعصبهم الشديد للسنة ، يعسرون أنفسهم مجاهدين في سبيل الله يقاتلون ضد كفار مرتدين ليس لهم الا السيف والنار .

من أشهر أسماء زعماء جماعات التركمان التي وصلتنا أسمين هما صندوق وأفشين ، ولقد دخل صندوق الشام في سنة ١٠٧٠ م من الأراضي البيزنطية ، فشعث المناطق ما بين حمص ومعرّة النعمان ، ولقد كان أفشين قبل هذا الوقت يعمل داخل الأراضي البيزنطية ، وقد التحق كل من أفشين وصندوق بتتش عندما دخل بلاد الشام وحاول فتح حلب ، (٤٠) ، وبقى أفشين في خدمة تتش ورافقه حينما توجه الى دمشق لاغاثة أتسز (٤١) ، لكنه هجره بعدما فتك بأتسز وتملك دمشق وأنفرد بحكمها ، ربما خشية أن ينال نفس المصير ، وعندما تخلى عن تتش وهجره أخذ معه الجزء الأكبر من التركمان الذين رافقوا تتش الى دمشق ، هذا ويمكن القول بلا تردد بأن أفشين كان أكثر مقدمي التركمان الذين دخلوا بلاد الشام تهديما وأكثرهم قسوة واشدهم وطنا وفضاظة على الناس والبلاد . ويروي كل من غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ وابن العديم تفاصيل ما قام به أفشين بعدما ترك تتش وتوجه شمالا يريد الأراضي البيزنطية ، ويقول ابن العديم : « ثم فسخ من عسكره - أي تتش - أفشين

التركي ، ومعه أكثر العسكر وعاد شمالا ونهب عسكره ضياعا في أعمال بعلبك .

ووصل رفنيه في اليوم العاشر من جمادى الأولى (٤٧٢ هـ / ٨ تشرين ثاني ١٠٧٩ م) وفيها جماعة كثيرة من التجار والقوافل متوجهين الى طرابلس فهاجمها بغتة ، وقتل ممن كان بها جماعة ، واستباح اموالهم وحریمهم ، وأقام بها عشرة أيام ، ثم سار فنزل حصن الجسر - قرب شيزر - فأكرمه أبو الحسن بن منذر ، فأعلمه بما عول عليه من نهب الشام ، فسأله في بلدة كفرطاب الا يعترضها فأجابته .

وسار فنزل قسطون - من قرى جسر الشغور - فجرى أمرها في النهب والعقوبة مجرى رفنيه ، وأقام بها نيفا وعشرون يوما ، ثم تنقل وعسكره بالمنجنيقات على أبراج جبل السماق وغيرها ، حتى لم يبق بها موضع ولا برج الا افتتحه وأهلكه ، وأستباح حریمهم وأولادهم ، وأستغرق أحوال أهل سمرمين والمعرة بالقطائع ، وطلع الى جبل بني عليم (جبل الزاوية الآن) فلم يتم له بها شيء .

وسار فنزل ضياع معرة النعمان الشرقية بالمنجنيقات ، ففتح أبراجها وحصونها بالسيف ، وأخذ ما لا يمكن إحصاؤه ، وغلب أهلها فهلك منهم خلق ، ونزل تل منس - قرب المعرة - وقطع عليها خمسة الاف دينار ، ولم يتمكن من أخذها .

وانتقل إلى عمل معرة النعمان ففعل مثل ذلك . وسار إلى معرتاح - من عمل كفرطاب - فتحصن أهلها في أبراجها ، وتعذرت عليه فأحرقها ، وهلك جميع من كان فيها ...

وحين رجع أفشين من الشام ولم يبق في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى حلب ، توجه إلى بلد إنطاكية فخرّب ما قدر عليه ، ونهب وسبى ما وجد ، وحمل إليه من إنطاكية مال ، وتوجه إلى الشرق بعد إمتلاء صدره وصدر عساكره من النهب » .

ويتابع ابن العديم ، الذي شهد الغزو المغولي ورأى بأمر عينه ما فعله التتر في بلاد الشام ، حديثه فيقول : « وجرى من هذا

الحادث بالشام أمر لم يسمع بمثله ، وتلاف أهله بعد ذلك بالجوع ،
ووجد قوم قد قتلوا قوما وأكلوا لحومهم ، وبيعت الحنطة ستة أرطال
بدينار وما سوى ذلك بالنسبة .

وجلا من سلم من الشام إلى بلد شرف الدولة أبي المكارم مسلم
ابن قريش ، فأحسن إليهم وتصدق عليهم ، وكان ذلك الاحسان منه
أكبر الأسباب في مملكته حلب» (٤٢) .

بعد قرابة عشرين سنة من هذه الأعمال استولى الصليبيون على
انطاكية ، ثم مروا في هذه المنطقة الجبلية الصعبة - في طريقهم إلى
القدس - دون أن يلقوا أية مقاومة تذكر ، ويشير هذا إلى حقيقة
مؤلمة هي أنه حتى بعد عشرين عاما لم تستطع هذه المنطقة أن ترمم
بعض ما لحقها من تشيعث وتهديم ، ولكن بعد بضع سنوات من
استيلاء الصليبيين عليها لقد كان من أصعب الأمور على نور الدين
محمود بن زنكي ومن جاء بعده من أمراء المسلمين استخلاص هذه
المنطقة من الصليبيين

لقد اقتنع كل إنسان في شمال بلاد الشام - وحتى في
الجنوب - بأن سابق بن محمود ليس لديه من الطاقة والعزيمة ما
يمكنه من صنع أي شيء يحسن به الوضع ويواسي به الناس ويخفف
من الام المصائب التي حلت بهم ، لهذا أخذ الناس - ومن جملتهم
قبيلة كلاب - ينظرون حولهم عليهم يجدون قائدا قويا وعادلا ، لقد
كان أمامهم : السلطان ملك شاه ، وتتش بن الب أرسلان ، ومسلم
ابن قريش العقيلي أمير الموصل .

لم يكن السلطان ملك شاه ليفي بالغرض ويلبي الرغبات ، فهو قد
كان بعيدا عن مسرح الأحداث مشغولا بسوى الشام والجزيرة من
القضايا ، يضاف إلى هذا أن التخريب قد تم باسمه وربما كان هو
راض عما حدث لأن ذلك كان سيمكنه من أخذ الشام وضمه مع
الجزيرة إلى أملاكه .

أما تتش فقطعا لم يكن بالشخص الذي رجا الناس على يديه
العدل والرحمة ، فهو لم يكن أحسن بكثير من أفشين .

ولقد بدا لكل الناس بأن مسلم بن قريش العقيلي هو الرجل الذي يمكنه أن يشغل الدور الذي رجوه منه ويؤديه بإخلاص أحسن أداء ، وعلى هذا الأساس توجهت نحو الموصل عدة وفود وجماعات تمثل مختلف طبقات الناس من أهالي الشام مع أعداد هائلة من اللاجئين ، ولقد استغاث هؤلاء بمسلم بن قريش وطلبوا منه التحرك نحو الشام لتخليصه .

عندما نستعرض ديوان ابن حيوس الذي أمضى قرابة الستين سنة من عمره يمدح بها حكام دمشق الفاطميين ثم الأمراء المراداسيين في حلب مع عدد من الوزراء والقادة الفاطميين ، عندما نستعرض هذا الديوان يسترعي نظرنا قصيدة متميزة بصنق عاطفتها وشدة تعبير أحاسيس قائلها ، وقد نظم ابن حيوس هذه القصيدة في أخريات أيام حياته ، ومدح بها مسلم بن قريش عندما فتح مدينة حلب وأسقط الدولة المراداسية ، وفيها يقول :

يا رحمة بعثت فأحيت أمة

قد طالما منيت بمن لم يرحم

جليت ظلم النانبات كما جلا

ضوء الغزالة جنح ليل مظلم

وأطرت طير الخوف حتى ماله

بالشام منذ طرقته من مجثم

إن الرعايا في جنابك أمنت

كيد الغشوم وفتكه المتغشم

لاالظبية الغيداء تخشى القسور الضم

أري ولا الذمي حيف المسلم

فخصمت بالاذلال كل مقلنس

وعممت بالاعزاز كل معمم

وغدا ستخلي الشام منهم مثلما

أخلت خزاعة مكة من جرهم

ولم يتحقق حلم ابن حيوس في إخلاء الشام من التركمان ، وسنرى بالتفصيل كيف أخفق مسلم في تحقيق ما صبا إليه ، وكيف هزمه التركمان وقتلوه وهو يجاهد في سبيل إقامة دولة عربية تشمل الشام والجزيرة مع أجزاء واسعة من العراق (٤٣) .

بعدما سمع تتش بالأعمال التي جناها أفشين ترك دمشق وتوجه شمالا بحجة أنه يريد مطاردة أفشين ليوقفه عن متابعة أعماله التدميرية ، لقد كان هذا ما تظاهر به تتش ، ويبدو أن قصده الحقيقي كان الاستفادة من الفرصة التي أوجدتها أعمال أفشين لكي يهاجم حلب ويحتلها ، فعلا وصل تتش إلى حلب وحاصرها أياما لكنه عندما أدرك عدم استطاعته أخذ المدينة بقوة السلاح رفع الحصار وانسحب متوجها شمالا حيث نهب القرى المحيطة بالمدينة ممن كان له حظ النجاة من أفشين ، ثم عاد بعدها مع غنائمه إلى دمشق (٤٤) .

وفي مدينة الموصل استقبل مسلم بن قريش وفدا حلبيا مع رسالة من أحداث حلب فيها تجديد للاستغاثة والدعوة للقدوم إلى حلب لانقاذها ، كما استقبل أيضا وفدا من أمراء قبيلة كلاب عملوا له نفس المطالب ، ووعده بالمساعدة والسير في ركابه ، وتبعوا لما رواه عدد من المؤرخين العرب كتب سابق بن محمود إلى مسلم بن قريش لا ليطلب منه المساعدة فقط وإنما ليعرض عليه التنازل له عن الامارة .

وهنا قرر مسلم بعد تسلمه لكل هذه الطلبات لا العمل للاستيلاء على شمالي بلاد الشام فقط وإنما على جميع مناطق الشام ومدنه ، ولقد كانت إحدى زوجات مسلم أختا للسلطان الب أرسلان أي عممة للسلطان ملك شاه ، وخشية أن يقوم السلطان ملك شاه أو أحد قادته بمهاجمة الموصل بعدما يتركها مسلم حينما يتوجه إلى الشام ، قام مسلم بإجراء احتياطي ، « فأنفذ ولده من خاتون عممة السلطان ملك شاه إليه ، وشرط على نفسه في كل سنة ثلاثمائة الف دينار ، فأجابته وأمره بقصدها - أي حلب - فسار إلى قلعة جعبر فحصرها ، وكان بها جعبر وأصحابه يقطعون الطرق ،

فصالحوه على أنهم لا يعودون إلى شيء من ذلك ، وسار إلى حلب فوصلها ثاني عشر ذي الحجة (٥ حزيران ١٠٨٠ م) ومعه بنو كلاب و كلب ونمير وجميع القبائل ، وقد أطاعوه خوفاً من الغز ، وأنفق عليهم الأموال ، فكسر الأحداث الأبواب يوم الجمعة لعشر بقين من ذي الحجة ، ودخل أصحابه إليها ولم يتأذ أحد من أهلها ولا أغلق فيها دكان .

وراسل سابق بن محمود وهو في القلعة مراسلة انتهت إلى أن يزوجه سابق بأخته ويعوضه مالا على أن يسلم القلعة ، فرضي وحط سابق رحله وماله إلى البلد ، ولم يبق إلا أن ينزل ، فوثب عليه أخواه شبيب ووثاب فقبضا عليه وأستوليا على القلعة » .

وهنا أخذ مسلم بحصار القلعة وطال الحصار ودام أكثر من أربعة أشهر ، وضاق مسلم ذرعا وتبرم من ذلك ونوى التخلي عن حلب والعودة إلى الموصل ، لكن التشجيع الذي لقيه من أهالي حلب ، ثم الوعود التي لقيها من مقدمي قبيلة كلاب ، مع ما كان يقوم به شخصيات الإمارة بالتوسط بينه وبين الأمراء المرداسيين في القلعة أقنعه بالبقاء في حلب ومتابعة حصار القلعة

ووقعت بعض الخلافات بين الأمراء المرداسيين ، وكان ذلك فرصة اقتنصها علي بن المقلد بن منقذ فتوسط بينهم وبين مسلم بن قريش ، وقد استطاع أن يقنعهم بالتخلي عن القلعة وتسليمها إلى مسلم مقابل تعويضات مالية مع اقطاعات لكل واحد منهم ، وهكذا نزل الأمراء المرداسيون من القلعة وتسلمها مسلم يوم الأحد العاشر من ربيع الآخر سنة ٤٧٣ هـ (أو يوم الثلاثاء الخامس منه) ٢٧ أيلول ١٠٨٠ م ، فزالت بذلك دولة بني مرداس (٤٥) ، وأصبح الآن مسلم بن قريش سيذا على شمالي بلاد الشام مع الجزيرة وأجزاء من العراق ، وكان لهذا فوائده ولكنه حوى مخاطره أيضا ، فالدولة الجديدة قد تعلق استمرار وجودها باستمرار مسلم بن قريش وبقائه حيا ، وكانت أية ضربة تزيل مسلم من الحياة تزيل في نفس الوقت الدولة التي أقامها وتجعل أراضيها لقمة سائغة للتركمان . وهذا ما حصل .

قبل أن تسقط الدولة المرداسية ، واثناء حكم سابق بن محمود ذكرنا بأن علي بن مقلد الأمير المنقذي صاحب كفر طاب كان قد هجر مدينة حلب وذهب إلى كفر طاب فأخذ يخطط لاحتلال قلعة شيزر المنيعية . وكانت هذه القلعة تحكم أنفذ من قبل أسقف البسرة الذي كان يدين بالطاعة للامبراطور البيزنطي ، ولما كانت شيزر من أمنع المواقع في بلاد الشام ، فقد كان من المحال أخذها بالقوة ، لذلك وضع علي خطة هدفت إلى حصار شيزر حتى تسقط من قبل نفسها بعد أن ينفذ ما فيها من مؤن ونخائر ، وفي سبيل هذه الغاية بنى علي قلعة على العاصي قريبا من شيزر أصبحت تعرف باسم قلعة الجسر ، وبعد ما سقطت الدولة المرداسية عاد علي إلى قلعة الجسر وصرف جهودها كلها في سبيل فتح قلعة شيزر ، واخيرا وبعد أن ضاق الحال بالمدافعين عن شيزر واشتد بهم الأمر استطاع علي أن يقنع أسقف البسرة بالتنازل له عن شيزر مقابل مبلغ من المال ، وفي يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٤٧٤ هـ / ١٩ كانون أول ١٠٨١ م ، تسلّم علي بن مقلد قلعة شيزر ، وغدا سيدها فأسس بذلك حكم الأسرة المنقذية في شيزر ، هذه الأسرة التي كانت من أبرز الأسر العربية زمن الحروب الصليبية (٤٦) .

وفي حلب عندما سمع مسلم بن قريش بخبر سقوط شيزر لعلي بن مقلد ، تحرك بسرعة وعمل من أجل انتزاعها منه ، وكان أول ما عمله هو أن جهز جيشا أرسله ضد شيزر بقيادة أخيه علي بن قريش ، وعندما وصل علي بن قريش مع جيشه إلى شيزر بدأ يحاصرها ولكن دونما جدوى فقد كان أميرها المنقذي قد شحنها بكل ما كانت تحتاج إليه من سلاح ومؤن وعتاد كي تقف وتقاوم لفترة مديدة . ولما لم تسقط شيزر لعلي بن قريش تحرك مسلم نفسه مع قوات جديدة نحوها ، واخذ يحاصرها ، ومرة أخرى لما وجد مسلم بأن الأمر سيطول ترك منطقة شيزر حتى تسقط ، وفي حمص استقبل مسلم بن قريش وفدا منقزيا عرض عليه مبلغ ١٠٠٠ ر دينار مقابل رفع الحصار عن شيزر ، وقبل مسلم بالعرض فاستلم المبلغ وأصدر أوامره إلى أخيه برفع الحصار والانسحاب .

ويذكر ابن العديم أن الذي دفع مسلم بن قريش على حصار شيزر هو حسده لابن منقذ (٤٧) . وهذا في الحقيقة وهم ومبالغة ، ذلك أن الحوادث التي وقعت كلها تبرهن على أن دوافع مسلم كانت أبعد من الحسد ، لقد كان مسلم يكمل ما بدأ به في حلب ، لقد كان يعمل على جعل الشام كله قطعه من دولته ، وفي هذا السبيل كان عليه أن يجعل جميع القوى تتحد راغبة أو راهبة تحت رايته ، فبعد أن استولى مسلم على حلب التفت نحو الامارة النميرية في حران فأتى عليها وضمها إلى أملاكه (٤٨) وقام بعد هذا بتجريد جميع أمراء الأسرة المرديسية من أملاكهم ، كما استولى على جميع القرى والأراضي الحلبية التي كانت في أيدي التركمان ، ونظف شمالي الشّام حتى مدينة حماه من التركمان وحال دونهم ودون الدخول إلى أراضيه حتى ديو مرورا ، واتوجّ أعماله هذه بأن مد نفوذه على مدينتي الرها في المشرق وانطاكية في الغرب وكانت من أملاك الامبراطورية البيزنطية (٤٩) .

وبعدما ترك مسلم شيزر وتوجه نحو حمص كان يريد الاستيلاء على هذه المدينة من خلف بن ملاعب الذي كان قد امتلكها وكان قصده من أخذ حمص أن يجعل ذلك خطوة أولى ممهدة للاستيلاء على بقية الشام وخاصة دمشق وطرد تتش منها ، ولقد استطاع مسلم احتلال مدينة حمص وبدأ في حصار قلعتها ، واثناء الحصار علم بأن تتش يعد عدته للتحرك ضدّه من دمشق .

ولما لم يكن مسلم قد أعد أموره للاصطدام مع أخي السلطان في هذه المرحلة فقد أثر عدم متابعة حصاره لقلعة حمص ، لذا تصالح مع خلف بن ملاعب وتركه وترك حمص له ، وقبل ذلك كان قد استقبل وفد شيزر وتصالح معه ، ثم سحب نفسه شمالا إلى حلب ، ثم شرقا إلى الموصل ليجهز قواته لمرحلة دمشق ، والقتال ضد تتش .

لقد كان مسلم بن قريش يدين بالتشيع على مذهب الامامية الاثني عشرية ، وكانت الخلافة الفاطمية هي الدولة الشيعية الوحيدة في منطقة - ما يسمى الآن بالشرق الأوسط - وكانت هذه الدولة قد تضررت كثيرا من التركمان ، لهذا كان من الطبيعي أن تتلاقى

مصالح هذه الخلافة مع مصالح مسلم بن قريش ، وأن توفق بينهما المبادئ العامة للتشيع ، لذلك عندما كان مسلم يعد عدته للحملة على دمشق قامت اتصالات بينه وبين بدر الجمالي في القاهرة وتم الاتفاق بينهما على أن ترسل القاهرة جيشاً فاطمياً يساعد مسلم بن قريش في الاطباق على دمشق عندما يصلها مسلم ويأخذ في حصارها .

ولم يكن مسلم انذاك هو الذي يتحرك فقط ، فقد استلم هذا الوقت تتش رسائل من أمراء الأسرة المرداسية ، ومن خلف بن ملاعب صاحب حمص ، ومن الأمير المنقذي لشيزر ، فيها الشكاية ضد مسلم بن قريش وفيها عروض للتعاون معا ضده لطرده من بلاد الشام ، ولتسليم املاكه لتتش . ولقد تجاوب تتش مع العروض التي بذلها هؤلاء الامراء له فجمع قواته وقادها شمالا نحو انطاكية ، وذلك في الوقت الذي كانت قد تجمعت فيه قوات الامراء العرب وتحركت شمالا تريد حلب ، ولقد احتلت هذه القوات حماه ثم اخذت معرة النعمان وارادت ان تتابع سيرها نحو حلب ، هذا وان تحرك تتش نحو انطاكية مع المنحى الذي تحركت عليه القوات العربية يوحي بوجود خطة مرسومة للاستيلاء على حلب ، وربما بنيت هذه الخطة على ان يستولي تتش على المناطق الشمالية الغربية لامارة حلب في حين تستولي القوات العربية على المناطق الجنوبية ، وعند الفراغ من ذلك تلتقي القوتين عند حلب فتطبق عليها وتنتزعها ، وبذلك يطرد مسلم من الشام .

ولم ينفذ الا جزء من هذه الخطة المفترضة ، فقد سمع مسلم بن قريش بنياً تحرك تتش وحلفائه العرب ، لذلك سارع بعبور الفرات على رأس قوات كبيرة وقصد اولا مدينة حلب ومنها كان يريد دمشق ، ولقد اجبر تحرك مسلم السريع تتش وحلفائه على الاقلاع عن متابعة اعمالهم والتراجع كل الى بلده وموقعه الحصين للدفاع عنه ضد مسلم بن قريش .

وفي حزيران سنة ١٠٨٣ القى مسلم بن قريش الحصار على مدينة

دمشق ، وبهذا كان ينفذ اهم اعماله كلها ، ويقوم بالخطوة الاخيرة والمهمة نحو تأسيس دولة عربية تضم الشام والجزيرة مع اجزاء من العراق ؛ ولقد اخفق مسلم في اخذ دمشق وذلك بعد ان حاصرها قرابة شهر ، كما انه اجبر على الانسحاب ، وان الاسباب الرئيسية التي كمننت وراء اخفاقه هي :

١ - التركيب القبلي لقواته ، ذلك ان هذه القوات قد ضمت عناصر من معظم قبائل الشام ، فقد كان فيها بالاضافة الى عقيل عددا لا يابن به من كلاب ونمير ، كما انها ضمت اعدادا من اكراد الجزيرة ، ثم انضاف اليها عندما وصلت دمشق اعداد من طيء ، وعليم ، وكلب ، ولقد كان العقيليون هم - ربما - الجزء الوحيد في قواته الذي اخلص له ، اما باقي اجزاء هذه القوات فقد دخلت في خدمة مسلم اما عن رغبة او عن رهبة ، رهبة منه وخوفا من بطشه ، ورغبة في نيل بعض الغنائم عندما تسقط دمشق ، وكان هذا حال عليم ، وكلب ، وطيء .

ومفيد ان نذبه هنا الى انه حتى وقت حادثنا هذا لا يمكن تقدير التركمان الذين استقروا في الشام باكثر من ١٥٠٠٠ ، لقد كان هناك عدد صغير من المقدمين ، وكل مقدم كان اتباعه اما ٥٠٠ رجل او ١٠٠٠ مقاتل ، وهكذا كان عدد التركمان مجتمعين اقل بكثير من عدد اي قبيلة عربية من قبائل الشام والجزيرة ، ولكن بينما فاق العرب التركمان بالكمية والعدد ، لقد فاق التركمان العرب بالكيفية والقدرة القتالية، لقد احسن التركمان فنونا من القتال واجادوا استخدام اسلحة لم يبارهم العرب ولا سواهم بها ، وخاصة استخدام الاقواس ، فقد كان التركماني فارسا يرمي وهو على ظهر فرسه في مختلف الاوضاع الى الامام والخلف والجوانب ، واهم من كل هذا لقد كان التركمان بدوا بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، كانت لديهم روح البداوة العذيفة ، وكان لديهم اقدام البدو وقسوتهم ، وكان التركماني يعتمد على نفسه في المعركة ولم يكن لديه اتباع او خدم يصاحبه في المعركة ، وكان البدو العرب لا يشبهون التركمان في اي

شيء تقريبا ، لقد كانوا بعيدى العهد بالبداوة الحقبة ، كانت روح القتال لديهم قد خبت جذوتها ، فاستخدموا العبيد المقاتلة . كانت الدنيا ومتاعها شاغلهم وكان تعلقهم بالحياة ومتعتها قد جعلهم يذسبون كيف يخططون او يفكرون بعقل ، ولقد مر بنا العديد من الامثلة وراينا كيف ان ٥٠٠ ١ تركماني هزموا ٠٠٠ ٧٠٠ كلابي وسيمر بنا امثلة اخرى اضافية تزيد في البرهان .

ب - مقاومة تتش الفعالة ، وهجوماته المفاجئة التي كان ينقضر بها على بعض اجنحة عسكر مسلم فيحطمها ثم يعود الى داخل دمشق ، ويقول ابن الاثير : « وفي بعض الايام خرج اليه - اي الى مسلم - عسكر دمشق وقاتلوه وحملوا على عسكره حملة صادقة ، فانكشفوا وتضعضعوا ، وانهزمت العرب ، وثبت شرف الدولة - مسلم بن قريش - واشرف على الاسر » .

ت - عدم وفاء الخلافة الفاطمية بوعودها ، « وكان شرف الدولة قد اعتمد على معونة عسكر المصريين على دمشق ، ومعاضدته بالعسكر المصري على اخذها ، فوقع التقاتل عليه بالانجاد والتقاعد عنه بالاسعاد اشفاقا من ميل الناس اليه ، وعظم شأنه بتواصلهم ووفودهم عليه .

فلما وقع يأسه مما امله ورجاه وخاف ماتمناه وورد عليه من اعماله ما شغل خاطره في تدبيره واعماله ، وتواترت الأخبار بما ازعجه واقلقه ، رأى ان رحيله عن دمشق الى بلاده وعودته الى ولايته لتسديد احوالها واصلاح اختلالها اصوب من مقامه على دمشق ووافق من شأنه » .

ج - لقد كان الذي ازعج مسلم واقلقه وجعله يقلع عن متابعة حصار دمشق هو خبر قيام ثورة في حران ضده ، ويقول الذهبي : « عصا اهل حران على شرف الدولة مسلم بن قريش ، واطاعوا قاضيهم ابن جبلة الحنبلي ، وعزموا على تسليم حران الى جبى امير التركمان لكونه سنيا ولكون مسلم رافضيا » ، وعندما « وصل الخبر الى مسلم بان اهل حران عصوا عليه ... رجع كارا الى حمص وصالح في

طريقه ابن ملاعب وحالفه واعطاه مضافا الى حمص ريفية وسلمية ،
واقطع شبيب بن محمود بن الزوقلية حماه ، واستخلفه في تلك
الاعمال .

وعاجل حران فوصلها يوم الجمعة ثامن ربيع الاول فوجد
قاضيها ابن جلبة الحنبلي قد استغل اهلها وادخل اليها جماعة من
بني نمير ... واذنذ ... الى جبئ امير التركمان ، وكان قريبا
فاستتناهم اليه ليسلم اليهم البلد ...

وشرع القاضي يعلم مسلما ويمنيه خديعة منه ليصل التركمان ،
وعلم مسلم فحاربهم ورمى قطعة من السور ، وبينما هو كذلك وصل
التركمان ، فترك اقواما يقاتلون البلد ، وركب هو بمن معه ، فأشرف
على التركمان ، واتصل الطراد ، وقال للعرب ، املكوا عليهم النهر
المعروف بالجلاب واجعلوه وراءكم ، وحولوا بين التركمان وبينه ،
ففعلوا ، وعطشوا وخيلهم ، وهجرت الشمس عليهم ، فمالوا بجمعهم
طالبين رأس الماء على ان يشربوا ويسقوا خيولهم ويعودوا على
العرب ، فلما عطفوا خيولهم لم يشك العرب انها هزيمة ، فآلقوا
نفوسهم عليهم ، فانهزموا ، فتبعوهم وغنموهم وقتلوا واسروا .
واقام مسلم على حصار حران ، وكان كلما رمى قطعة من السور
نصب ابن جبلة بإزاء التلثة مجانيق وعرادات منعت من يروم القرب
منها .

وطال حصار حران وتمكن مسلم اخيرا من اختراق الاسوار
ودخل حران « فقتل خلقا كثيرا من اهل البلد ... ثم طلب القاضي
فوجد في كندوج) فيه قطن فأخذ وولديه ، وقبض على اعيان اهل حران
ونهب البلد الى اخر النهار ، ثم رفع وصلب القاضي وولديه واعيان
الحرانيين على السور ، وقتل خلقا من العوام ، وعاد الى منزله
بأرض الموصل « (٥٠) .

وصل في هذه الآونة الى الشام والجزيرة موجة من المهاجرين
التركمان ، وكان ابرز مقدمي هذه الموجة أرتق وجبئ ، وفي الواقع
كان ارتق هو الاهم بين مقدمي هذه الموجة والاكثر شهرة ، ذلك انه

شغل دوراً مؤثراً في انزال ضربة قاصمة بالقوة البدوية العربية في الجزيرة ، كما شارك في الصراع بين التركمان من أجل السيادة على بلاد الشام ، يضاف الى هذا كله انه كان جد الاسرة الارتقية التي حكم افراد منها في حلب والجزيرة وكانوا من اهم قادة المسلمين ايام الحملة الصليبية الاولى ثم اثناء الفترات التالية .

وعندما كان التركمان يؤسسون امبراطوريتهم ويعملون من أجل مد سيطرتها على دول العالم الاسلامي للقرن الحادي عشر م ، لم يكن مقدمي جماعات التركمان هم وحدهم الذين بذلوا غاية جهودهم من أجل اقامة دويلات لانفسهم ، بل صنع عدد من رجال الادارة الاسلامية المحترفين الشيء نفسه ، ولقد كانت أسرة آل جهير بين هؤلاء ، وكان محمد بن احمد بن جهير هو رب هذه الاسرة ، وقد بدأ حياته الادارية في مدينة الموصل حيث شغل منصب الوزير فيها ، ثم ترك الموصل فذهب الى حلب حيث عمل بنجاح فائق وزيراً لثمال بن صالح ، وبعد ان خدم ثمال فترة طويلة من الزمن ترك مدينة حلب مخافة ان يوقع حساده بينه وبين سيده ، وتوجه الى ميفارقين فعمل وزيراً فيها ، ومن ميفارقين طارت شهرة ابن جهير فطلبه الخليفة القائم واستدعاه الى بغداد ليكون وزيراً له ، وذهب ابن جهير الى بغداد فعمل في خدمة القائم ثم في خدمة خليفته المقتدي .

وكان محمد بن احمد بن جهير هذا يعرف بلقب فخر الدولة ، ولقد تمكن خلال عمله في بغداد من إقامة علاقات ود متينة مع نظام الملك وزير السلطان الب ارسلان ومن بعده ابنه ملك شاه ، وأشهر وزراء الدولة السلجوقية ، وبدون شك أعظم رجال الادارة والتشريع في تاريخ الاسلام ، فهو مؤسس المدرسة النظامية ، ومطور نظام الاقطاع العسكري ، واليه ينسب كتاب سياسة نامه الشهير .

وكان من ثمرات العلاقات بين فخر الدولة ونظام الملك زواج ابنه محمد - اي ابن فخر الدولة - الذي كان يعرف بلقب عميد الدولة بابنتين من بنات نظام الملك واحدة بعد أخرى .

وعندما صرف فخر الدولة عن وزارة المقتدي خلفه ولده عميد

الدولة وذلك بفضل جهود نظام الملك وبسبب ما بذله من ضغوط على دار الخلافة ، ولقد بقي عميد الدولة وزيراً حتى عزل يوم الجمعة ٢٥ صفر سنة ٤٧٦ هـ / ١٤ تموز سنة ١٠٨٣ م ، وهنا غادرت اسرة آل جهير مع اسبابها ومن تعلق بها مدينة بغداد وأخذت طريقها الى اصفهان حيث استقبلت بحفاوة ، ورحب بها من قبل السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك .

وفي تشرين الاول من نفس السنة (١٠٨٣ م) فوض السلطان ملك شاه الى فخر الدولة الامر في ان يقود جيشاً سلجوقياً من جيوش السلطان يذهب على رأسه الى الجزيرة لفتح ديار بكر ومن ثم القضاء على الدولة الروانية . ولقد عين السلطان ملك شاه اق سنقر قسيم الدولة الذي سيكون اول حاكم سلجوقي لحلب - كما سنرى في اول الفصل التالي - عينه كمسؤول عسكري عن شؤون الحملة .

وعندما وصلت انباء هذه الحملة الى الجزيرة سببت قيام تحالف بين قوتي الجزيرة المتخاصمتين ، اي بين الدولة الروانية وبين مسلم بن قريش صاحب الموصل وحلب ، ولقد دفعت الدولة الروانية لمسلم بن قريش مدينة آمد وذلك في سبيل تحالفه معها ووقوفه الى جانبها عوضاً عن الوقوف ضدها ، وتجمعت قوات مسلم بن قريش مع القوات الروانية قرب آمد للتصدي لابن جهير ، وعندما وصلت اخبار التحالف الرواني العقيلي الى ابن جهير اخبر به السلطان ملك شاه واستمده « فأرشفه السلطان بجيش كثيف من جملتهم الأمير ارتق بن اكسب ابو الملوك الأرتقية » ، وجاءت القوات التركمانية الى قرب آمد وعسكرت امام القوات العقيلية الروانية ، وحاول ابن جهير ان يقنع مسلم بالتخلي عن القتال والانسحاب وقال : « لا أوتر ان يحل بالعرب بلاء على يدي » ، « ووقعت المراسلة - بينه وبين مسلم - وكل أشار على مسلم بالرجوع الى اعماله ، فقال : ترجعون مرحلة الى ورائكم وأرجع أنا لنلا يقال انني عدت منهزماً ، فامتنع ارتق بك وقال : انا لا ارد رايات السلطان على عقبها ، وعرف التركمان ما يجري فقالوا : نحن جننا من البلاد البعيدة لطلب

النهب ، وهؤلاء يسارعون في الصلح ، وركبوا نصف الليل من غير
اعلام ارتق ، وأشرفوا ... على العرب وكانوا أضعاف الغز ،
فأخذوهم باليد من غير طعن ولا ضرب ، واحتاطوا بهم ، ولم يكن
لمسلم سبيل الى الهرب ، فطلب صوب آمد ، وتبعه ابن مروان
وجماعة من أصحابهما ، فدخلوا آمد .

وأشرف ابن جهير وارتق بك على القوم ضاحي النهار ، وقد
استولى التركمان على الحلل والأموال والمواشي ، وكان مما لا يحسد
ولا يحصر ، وأخذوا النساء وفضحوهن ، وربطوا أمراء بني عقيل
بالحبال ، وباعوهم بالقراريط ، وأشعل التركمان عشرة آلاف رمح
تحت القدور ، وجرى على العرب ما لم يجر عليهم قبله مثله ، وسبوا
نساءهم ، وبلغ الفرس الجيد ديناراً ، وكذا الجمل والفرس ،
والرأس الغنم نصف قيراط ، والعبيد والاماء من دينار الى دينارين
وما سوى ذلك فما اشترى ولا بيع .

وتحرك ابن جهير الآن بسرعة ، وارادا استغلال ما حدث لصالحه
وصالح السلطان فبعث « الى ارتق بك يقول : قد حصلت بنو عقيل في
أيدي التركمان ، ويجب أن تجمعهم وتنفذهم الى السلطان ، وتقيم
على هذا الانسان ، يعني مسلم بن قريش ، وتستنزله ، وقد ملكت
الأرض الى مصر . » ولقد كان هذا ما تخيله ابن جهير وتمناه لكن
الأقدار وارتق بك ارادا شيئا آخر . وفي اصفهان عندما سمع السلطان
ملك شاه أخبار ما تم عند آمد خيل اليه هو الآخر بأن الجزيرة
والشام غدتا من املاكه ، لهذا سارع الى استغلال هزيمة مسلم
وتمتين نصر التركمان فقاده قواته وتوجه نحو الجزيرة ، وعندما
وصلها دخل مدينة الموصل وأخذ يعد نفسه لاكمال زحفه على الشام ،
ومرة أخرى لقد أراد ملك شاه شيئا وأرادت الأقدار وارتق شسيئا
آخر . فبعدهما دخل مسلم مدينة آمد محتميا بأسوارها كتب الى «
ارتق بك وقال : لمثل هذا اليوم خباتك ، ولمثله تستحب الصنيعة ،
وأريد أن تمن علي بنفسي ، وبذل له مالا أرغبه فيه ، » ورضي ارتق
بعرض مسلم ووافق على أن يفسح له سبيل النجاة ، لذلك عندما طلب
ابن جهير منه التشدد في حراسة اسوار آمد واخذ الحيطه لمنع مسلم

من النجاة أجابه « هذا أمر ما اليك منه قليل ولا كثير ، وأنا صاحب الحرب ، وليس من عادتنا مع من نأسره أن نحبسه بل نبيعه ونطلقه وكانت نية ارتق بك مع السلطان غير مستقيمة » . وقبل أن يدخل السلطان مدينة الموصل بلغه أن مسلما قد نجا من أمد يوم الأحد ٢٧ تموز ١٠٨٤ م ، وبعدما دخل الى الموصل جاءت الانباء من خراسان بأن أخاه تكش بن الب أرسلان قد استغل ابتعاده عن هذه البلاد فأعلن الثورة وأخذ يعمل للاستيلاء على مدن خراسان بغية اعلان نفسه سلطانا مكان ملك شاه ، ولقد أجبرت هاتان الحادثتان ، خاصة الثانية منهما ، ملك شاه على أن لا يتابع زحفه على الشام ، بل الى صنع تسوية مع مسلم بن قريش كي يعود الى خراسان فيتدارك أوضاعها ، ويقول غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء : « وجاء للسلطان من ناحية أخيه تكش ، فرأى إعادة مسلم الى بلاده ، فأرسل اليه أبا بكر بن نظام الملك وكان نازلا بمقابل الرحبة ، فتوثق منه ، وعاد به الى السلطان ، فخلع عليه وأعادته الى أعماله ، ورجع الى أصفهان » .

وعندما التقى مسلم بن قريش بالسلطان ملك شاه قدم اليه مبلغا كبيرا من المال مع كمية من الهدايا الثمينة والخيول من جملتها فرسه الخاص ، وهكذا عادت الى مسلم أملاكه رغم الضربة القاصمة التي نزلت به ، ونجت مع نجاة مسلم الدولة المروانية من السقوط ، ولم تحقق حملة ابن جهير ما تمناه فخر الدولة وابتغاه (٥١).

وعلى الرغم من التسوية التي صنعها مسلم بن قريش مع السلطان ملك شاه ورغم أنه لم يفقد شيئا من أراضيه ، لقد كان مسلم غير قادر بسهولة على استرداد قوته والتعافي مما نزل به ، وهنا مرة أخرى توجه مسلم ببصره نحو القاهرة حيث الخلافة الفاطمية وسيدها وصاحب الأمر فيها بدر الجمالي ، فقام بإرسال عمه مقبل ابن بدران الى مصر كرسول له كي يقابل بدر الجمالي ويحاول تجديد الأمل معه ، ويروي سبط ابن الجوزي بأن مقبل بن بدران أخبر بدر الجمالي بأنه اذا ما استلم بعض المساعدات المالية ، واذا ما أرسل جيش فاطمي الى الشام فسيعبر مسلم الفرات ويساعد

الجيش الفاطمي ليس فقط على أخذ الشام بل حتى على أخذ العراق والجزيرة أيضا ، ويروي سبط ابن الجوزي أيضا ما يفيد بأن ارتق الذي كان يخشى أن يعاقبه السلطان ملك شاه بسبب ما قام به في آمد كان متورطا منذ البداية في خطط مسلم هذه ، ولقد أمل كلاهما في توريط تتش وادخاله في مخططاتهما ، ومفيد أن نذكر هنا بأنه قبل قيام هذه الاتصالات مع القاهرة كان هناك بعض الاتصالات بين القاهرة وتتش وأن تتش كان سيتزوج ابنة بدر الجمالي في سنة ١٠٨٣ م (٥٢).

لقد جاءت تحركات مسلم هذه جد متأخرة ، وما كان بإمكان القاهرة أن تدقده مما ألم به ، فعندما عاد مقبل بن بدران من مصر الى الشام يرافقه وفد فاطمي مؤلف من الوزير ابن المغربي وأحد أولاد بدر الجمالي وجماعة من أعيان الدولة الفاطمية ، وجدوا شرف الدولة مسلم بن قريش قد قتل ، وكانت قصة مقتله كالتالي :

بعد أيام من نجاة مسلم بن قريش من آمد ، تمكن سليمان بن قتلمش وهو أحد أفراد الأسرة السلجوقية الذين كانوا يعملون داخل الأراضي البيزنطية من احتلال « نيقية ، وهي بلد بالساحل تضاهي انطاكية ، واستولى أيضا على - جميع ما يليها من طرسوس وأذنة ومصيصة وعين زربة « اي مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية التي كانت بيزنطة قد انتزعتها في منتصف القرن العاشر من سيف الدولة الحمداني بفضل جهود نقفور فوكاس ، وحين صنع سليمان هذا كان قد أسس دولة سلاجقة الروم الشهيرة التي ورثتها الدولة العثمانية بعد عدة قرون ، وبعد احتلال سليمان لنيقية وماجاورها توجه بانظاره نحو مدينة انطاكية التي كانت أيضا قد احتلها البيزنطيون في منتصف القرن العشر .

ويقدم لنا ابن العديم رواية مفصلة حول احتلال سليمان لانطاكية جاء فيها : « وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة (١٠٨٤) شرع سليمان بن قتلمش في العمل على انطاكية والاجتهاد الي أن تم له ما اراد ، فأسرى من نيقية في عسكره وعبر الدروب وأوهم أن

الفلارديوس (الحاكم البيزنطي لأنطاكية) استدعاه ، وأسرع السير الى أن وصل أنطاكية ليلا ، فقتل أهل ضيعة تعرف بالعمرانية جميعهم لنلا يندروا به ، وعلقوا حبالا في شرفات السور بالرماح ، وطلعوا مما يلي باب فارس ، وحين صار منهم على السور جماعة نزلوا الى باب فارس وفتحوه ، وبخل هو وعسكره من الباب وأغلقوه ، وكانوا مائتين وثمانين رجلا ... ولم يشعر بهم أهل البلد إلى الصباح ، وصاح الأتراك صيحة واحدة فتوهم أهل أنطاكية أن عسكر الفلارديوس قد قاتلوهم فانهمزموا ، وعلموا أن البلد قد هجم فبعضهم هرب إلى القلعة ، وبعضهم رمى بنفسه من السور فنجأ . وبعد أن أصبح سليمان سيد مدينة أنطاكية توارد إليه التركمان فحاصر قلعة أنطاكية قرابة شهر ففتحها ، واتخذ سليمان أنطاكية مقرا له « وفتح الحصون المجاورة لها بعضها عن طوع وبعضها عن استدراج » ، ثم أخذ يتطلع نحو مدينة حلب للاستيلاء عليها وضمها إلى مملكته الجديدة الناشئة^(٥٢).

ولقد جلب استيلاء سليمان بن قتلمش على أنطاكية معه تهديدا جديدا وهائلا لوضع مسلم بن قريش وحكمه في حلب ، فقد أخذ سليمان بعد توطيد نفسه في أنطاكية يعمل على احتلال أراضي حلب ، كمقدمة لأخذ حلب نفسها ، ولقد انضم إليه في أنطاكية عدد من الأمراء المرداسيين مع أتباعهم ، كما جاء إليه عدد لا بأس به من عساكر مسلم ، لأن مسلما كان قد انقص أعطيائهم بعد هزيمته في آمد .

وعندما سمع مسلم بأخبار هذه المحنة الجديدة جمع بعض القوات البدوية العربية وجاء إلى حلب ، وأخذ يعد العدة للاصطدام بسليمان ابن قتلمش ، فاستدعى إليه المقدم التركماني جبجق واستأجره مع أتباعه ، وأخذ مسلم يغير على أراضي أنطاكية ، وما كان من سليمان إلا أن رد على غاراته بغارات انتقامية مماثلة على أراضي حلب ، ولقد تضرر أهالي قرى حلب وفلاحيتها كثيرا من هذه الغارات ، واحتجوا إلى سليمان على أعماله ضدهم ، فأجابهم بأنه ليس من حقه نهب المسلمين ولكن مسلم بن قريش أكرهه على ذلك.

وعلى الطرف الآخر عاد مسلم بن قريش غاراته على انطاكية ،
فجعل اسبابها عدم تلبية سليمان بن قنملمش لمطالبه ، فقد كان مسلم
يتقاضى من البيزنطيين أصحاب انطاكية مبلغا من المال كجزية سنوية .
وقطع فتح سليمان لانطاكية هذا المال عنه ، وطالب مسلم الآن
سليمان بدفع ما كان البيزنطيون يدفعون ، فلم يجبه الى ذلك وقال :
تلك جزية كانت على الروم لتمسك عن جهادهم ، وقد قمت أنا
بفريضة الجهاد ، وصارت انطاكية للمسلمين فكيف أؤدي عنها اليك
جزية ؟

ونصح مسلم ان يتجنب الحرب مع سليمان الذي لم يكن له علاقات
طيبة مع السلطان ملك شاه ، وقيل له بأن من الأفضل التصالح معه
والتحالف ، لكن مسلم ركب رأسه فرفض ما أسدي اليه من نصائح
وقرر ان يهاجم انطاكية في سبيل انتزاعها من سليمان ، لذا قاد
جيشه الذي شكله ، وكان فيه قرابة ٦,٠٠٠ مقاتل ، قاده نحو
انطاكية ، وعلى الطريق اعترضه سليمان بن قنملمش قرب عفرين ،
وفي ظهيرة يوم السبت ٢٤ صفر ٤٧٨ هـ / ٢١ حزيران ١٠٨٥
م اشتبكت قوات سليمان بقوات مسلم فانصرفت عليها ، لأن
الشمس كانت في وجوه أصحاب مسلم ، ولأن قوات جبق الغزية
تخلت في بدء المعركة عن مسلم وانضمت الى جيش سليمان ، ولأن
أصحاب مسلم وأتباعه من عقيل وغيرها من القبائل هربوا من ساح
المعركة وتركوا مسلم يعاني مصيره ، ولم يصمد مع مسلم سوى
أحداث حلب وكانوا ستمائة ، وحاول مسلم الانسحاب الى حلب ،
وجهد الأحداث في تغطية انسحابه فسقط منهم اربعمائة ، واخفق
مسلم بن قريش في تأمين النجاة لنفسه وتلقى ضربة أفقدته حياته
(٥٤).

ولقد أنهى مقتل مسلم بن قريش جميع المشاريع التي خطط لها ،
كما أنهى الفترة التي كان المتصارعون فيها للسيادة على الشام هم
البدو العرب من جهة والبدو التركمان من الجهة الثانية ، ولقد أصبح
من الآن فصاعدا الصراع من أجل السيادة على الشام بين التركمان
أنفسهم حيث ان القبائل العربية قد أزيحت عن مسرح الأحداث

المؤثرة ، ولم يعد لها شأن يذكر في أحداث التغييرات السياسية في الشام.



كان مسلم بن قريش قد جاء لأخذ حلب - كما مر معنا - بعد أن استدعاه أحداث المدينة وقد تمكن من أخذها بعد أن فتحوا له بواباتها عندما وصل إليها ، ولقد كان مقدم أحداث حلب خلال هذه الحقبة هو الشريف حسن بن هبة الله الحتيتي ، ولقد غدا الحتيتي زمن مسلم الحاكم الفعلي لمدينة حلب ، ولقد تضاعفت قوة أحداث حلب خلال هذه الفترة ، ويكفي برهان على مدى ضخامة الأحداث وقوتهم أن ٦٠٠ منهم كانوا في جيش مسلم بن قريش أثناء قتاله ضد سليمان بن قتلمش ، ولقد شارك الحتيتي في إدارة حلب سالم بن مالك ابن عم مسلم ، وكان قد عينه حاكما لقلعة حلب ، ولكن مهما يكن الحال لقد أصبح مصير حلب بعد مقتل مسلم بين يدي الحتيتي وأحداثه.

وحمل سليمان بن قتلمش جثة مسلم بن قريش وأتى بها فطرحها أمام سور حلب ، وكان يأمل بأن تسلم المدينة له ، لكن الحتيتي رفض التسليم وأصر على المقاومة ، وهنا بدأ سليمان بحصار مدينة حلب ، وقام الحتيتي أثناء الحصار بمراسلة السلطان ملك شاه فأعلمه بمصرع ابن قريش ، ودعاه للقدوم الى حلب ليتسلمها .

ولما لم يكن للحتيتي سيطرة على قلعة حلب وكان بحاجة الى موقع حصين يتخذ مركزا له فقد قام ببناء قلعة لنفسه وأحداثه داخل المدينة ، ولا يزال موقع هذه القلعة معروفا ، فأحد أحياء حلب الواقعة الى جنوبي القلعة الكبيرة يعرف الآن باسم « قلعة الشريف » واتخذ الحتيتي من قلعته الجديدة مقرا لحكومته وشكنة لأحداثه ، وهكذا أديرت حلب إدارة شبه شعبية ووجد فيها نوع من أنواع الجمهوريات.

ولم يركز سليمان كل جهوده على حصار حلب، لأنه أدرك أن الأمر سيطول، لذلك قام بترميم، أو بالحري بإعادة بناء، قطعة من مدينة قنسرين المجاورة لحلب، وجعل مقر قيادة قواته فيها، وأخذ يعمل على احتلال أراضي وبلدان إمارة حلب الجنوبية، فاستولى على معرة النعمان وكفر طناب، ولطمين، واستمر في نفس الوقت في محاصرته لحلب، وإن كان بشكل جزئي.

وفي خراسان استجاب السلطان ملك شاه لدعوة الشريف الحثيثي وتحرك على رأس قوات كبيرة غرباً نحو حلب، لكن تحركه كان بطيئاً، مما أعطى الفرصة لسليمان بن قتلمش للتضييق أكثر على حلب، وهنا وجد الحثيثي نفسه مكرهاً على التوجه بنظره نحو دمشق حيث كان تتش، فاستدعاه لیسلمه مدينة حلب.

ولم يكن تتش ينتظر أكثر من مثل هذه الدعوة، وكان عنده حين وصول هذه الدعوة إليه ارتق مع أتباعه، لهذا تحرك تتش وارتق وأتباعهما من التركمان شمالاً يريدون مدينة حلب، وكان ذلك في محرم سنة ٤٧٩ هـ / نيسان ١٠٨٥ م وقبل أن يصل تتش وقواته إلى حلب اعترضه سليمان بن قتلمش مع قواته، والتحم الجيوش السلجوقيان في معركة تمخضت عن نصر تتش ومقتل سليمان بن قتلمش وهزيمة قواته، ولقد كانت هذه المعركة التي وقعت بعد قرابة سنة من مقتل مسلم بن قريش (٥٥) أول معركة اقتتل فيها جيوش سلجوقيان من أجل السيادة على إحدى مناطق الشام، ومن هنا تأتي أهميتها ذلك أنها افتتحت فترة جديدة في تاريخ الشام والتاريخ السلجوقي، وسببت وضع حلب لأول مرة في تاريخها تحت حكم السلاجقة المباشر، وبذلك خلص معظم الشام للسلاجقة، وبات بإمكانهم تطويق الجزيرة والأجهزة على ما بقي فيها من قوة.

إن سقوط الشام ووقوعه تحت الحكم السلجوقي المباشر حدث في غاية الخطورة وذلك لما جلبه معه من تغيرات هائلة في ميادين الحياة السياسية والدينية والاجتماعية، وحتى العرقية، تغيرات تأثر بها

جميع سكان بلاد الشام على مختلف طبقاتهم واختلاف انماطهم في الحياة وتعدد عقائدهم .

وبعد أن انتصر تتش على سليمان بن قتلمش تحرك نحو حلب آملاً بأن يجد بواباتها مفتوحة والناس قد خرجوا من المدينة لاستقباله والترحيب به ، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل ، فعندما وصل تتش حلب وجد الأبواب مغلقة والأسوار محروسة من قبل الحثيتي واحداً ، وعندما استوضح تتش أسباب هذه المعاملة جاءه الجواب بأن ركب السلطان قريب الدنو من حلب ، وأنه بعث يحظر تسليماً لاي إنسان سواه ، ولم يقنع تتش بهذا الجواب ، لذلك أمر قواته بأن تحاصر المدينة حتى تسقط ، وفي ٢٦ ربيع الأول ٤٧٩ هـ / ١١ تموز ١٠٨٦ قام جماعة من تجار حلب وأتباعهم ممن كانوا يكرهون الحثيتي ويناصبونه العداء لما سببه من ضرر لمصالحهم ، قام هؤلاء بفتح إحدى بوابات حلب ، فمكنا تتش وجيشه من دخولها والاستيلاء عليها .

لقد كان حصار تتش لحلب هذه المرة أقصر حصار حاصرها به ، لكن دخوله الى المدينة لم يعن أبداً أنه أصبح سيدها فقد كانت هناك قلعة الشريف حيث تمركز الحثيتي والأحداث وذلك بالإضافة الى القلعة الكبيرة حيث أعلن سالم بن مالك بأنه لن يسلمها الا للسلطان نفسه ، لأن مسلم بن قريش كان قد أوصاه بذلك ، واستطاع تتش بعد أيام من دخوله حلب تسلم قلعة الشريف ، والقى القبض على الحثيتي ونفاه الى القدس حيث لم يسمح له بمغادرتها والعودة الى حلب ، وبعد استسلام قلعة الشريف صرف تتش جهوده كلها لحصار القلعة الكبيرة ودام هذا الحصار قرابة الشهر ، وأثناء ذلك وصلت الى أطراف حلب طلائع قوات ملك شاه ، لهذا أثر تتش أن لا يصطدم مع أخيه وأن لا يلتقي به بأي حال من الأحوال ، لذلك جمع قواته وانسحب على رأسها عائداً الى دمشق (٥٦) .

ووصلت الى حلب فرقة كبيرة من قوات ملك شاه قبل أن يصل السلطان نفسه ، وكان على رأس هذه الفرقة عدد من المقدمين منهم

برسق ، وإياز ، وبوزان ، وفي يوم الثالث من كانون الأول لسنة ١٠٨٦ م وصل ملك شاه الى مدينة حلب فتسلمها ، وتسلم قلعتها الكبيرة من سالم بن مالك ، ولقد عوضه عنها قلعة جعبر حيث أعطاه أياها كاقطاع ، وبذفس الوقت منح ابن عمته محمد بن مسلم بن قريش الرحبة ، والرقة ، وحران ، وسروج ، والخابور كاقطاع أيضا وحين صنع السلطان ملك شاه هذا أحيا - ولو جزئيا - مملكة مسلم بن قريش (٥٧).

ولقد أمضى السلطان ملك شاه عدة أيام في حلب ، ثم ذهب الى انطاكية فتسلمها ، وبقي فيها بضعة أيام ، وقبل عودته الى حلب عين أجد ضباطه واسمه يغني سيان حاكما على انطاكية ، وفي حلب عيد ملك شاه عيد الفطر لسنة ٤٧٩ هـ (كانون ثاني ١٠٨٧) ثم غادرها متوجها شرقا نحو خراسان . وقبل أن يغادر ملك شاه مدينة حلب جاءت رسالة من نصر بن علي أمير شيزر يعترف فيها بالطاعة للسلطان ويتنازل له عن اللاذقية وأفامية وكفر طاب . وخلف ملك شاه وراءه أق سنقر قسسيم الدولة واليا على حلب يساعده تركي اسمه نوح في ولاية القلعة ، وترك عند قسسيم الدولة حامية مؤلفة من ٥٠٠ ر٤ فارس ، وفي طريقه الى خراسان عين ملك شاه بوزان على مدينة الرها (٥٨) .

لقد كانت حملة ملك شاه هذه ثاني حملة كبيرة يقودها أحد سلاطنة السلاجقة حتى حلب ، ولقد سارت هذه الحملة على نفس الطريق الذي سلكته حملة الب ارسلان من قبل ، انما حققت ما لم تحققه تلك الحملة ، فقد أوصلت الأمبراطورية السلجوقية الى ذروتها في الاتساع ، فقد استطاع ملك شاه أخذ الرها وحلب وانطاكية الأمر الذي أخفق أبوه في تحقيقه.

في الحقيقة لقد كانت حملات الب ارسلان ثم حملة ابن جهير وحملة ملك شاه هذه أكثر من حملات عسكرية ، لقد كانت حلقات من حلقات تدفق التركمان على بلاد الشام والجزيرة ، فحملة الب

ارسلان جلبت إلى الشام أتنسز وتتش وأفشين مع أتباعهم ، وتركت حملة ابن جهير وراءها ارتق وجبق وفتحت الطريق أمامهما وأمام أتباعهما للدخول إلى الشام ، ومع حملة ملك شاه الأخيرة أصبحت الشام وإلى حد ما الجزيرة أجزاء من الامبراطورية السلجوقية الواسعة ، وقد افتتحت هذه الحملة عهدا جديدا في تاريخ الشام والجزيرة هو عهد الحكم السلجوقي المباشر ، وسيكون هذا العهد موضوع فصلنا المقبل.

☆ ☆ ☆